

عباس محمود العقاد

مجمع الأحياء



معرض طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بـبصر

كلمة

في تصدير الطبعة الثالثة

هذه الرسالة وليدة الحرب العالمية الماضية .

شغلني موضوعها يومئذ لأنه موضوع الصراع في الحياة الإنسانية بل في الحياة عامة ، وأحسبت أن أعرف لهذا الصراع معنى يطمئن إليه الضمير ، فانهيت بالرسالة إلى معنى فيه بعض الاطمئنان أو كل الاطمئنان ، وهو أن الحق والنواميس الطبيعية يتلاقيان .

وأعدت طبع الرسالة بعد الحرب الماضية بستين فقلت في مقدمة الطبعة الثانية : « لا أزال أعتقد بعد الحرب كما كنت أعتقد قبلها أن الغيرة على الحق هي روح الإنسانية أو هي مظهر أنانيتها وحب البقاء فيها . فإذا هي رضيت لأمة أن تستنزف موارد الأمم بغير الحق ثم اطمأنت إلى هذه الحالة فقد آذن ذلك بانحلالها وكان منها بمثابة ضعف الوطنية في الأمة وضعف الحيوية في الفرد ، وكلاهما نذير الفناء » .

وما هي ذي الطبعة الثالثة لجمع الأحياء تصدر والدنيا مشغولة بحرب عالمية أخرى هي أشد هولاً وأوسع مدى وأقوى اختلافاً على المبادئ والآراء من الحرب التي نشبت قبل ثلاثين سنة . فإذا كان هناك خاطر يرد على الذهن في تصدير هذه الطبعة - خلال هذه الحرب القاعة - فذلك الخاطر مما يركى موضوع الرسالة ويؤيد نيتها ، أو يسير بنا في وجهتها ، وهي أن الصراع الأكبر الذي نشهده اليوم سينتهي أيضاً إلى طاقبة فيها بعض الاطمئنان أو كل الاطمئنان ، لأنها تناقض القوة العمياء : قوة الحديد والنار ، وتشايح القوة البصيرة : قوة العدل والحرية .

عباس محمد العقاد

أكتوبر ١٩٤٤

مقدمة الطبعة الثانية

خواطر عامة

حول موضوع الرسالة

كتبت هذه الرسالة في النضال بين الأهواء والمبادئ واستكناه وجه الحكمة التي تبدأ منها وتعود إليها أعمال الناس ومساعدتهم في هذه الحياة . وغواها « أن الخير والشر في هذه الدنيا لا ينفصلان وأن أشرف ما يعرفه الناس من الحق غيرتهم على ما يعتقدون أنه الحق ، وأن الحق الذي نعرفه ونفار عليه غير الحق الذي تتوخاه حركات الكون المتجلية في تاريخ البشر ، فليس ما نعتقده حقاً إلا أداة موصلة إلى الحق العميق المكنون عنا والذي يرسم طرف منه في عقائد الطبائع القوية السليمة . ومهما بلغ من إجحاف هذه العقائد وقسوتها فهي أرحم بالناس من الموت ، والموت كائن لا محالة في خلوة الناس من العقائد أفراداً كانوا أو جماعات . وأنا إذا أردنا أن نعرف رحمة القوى المسخرة لهذا الوجود فلا نعرفها بقياس قوانينها إلى القوانين التي تخيلها ونفترضها ونود أن نجريها في الوجود لو كان الأمر

بيدنا . ولكننا نعرف هذه الرحمة المحجوبة بشيء بين واضح :
هو اليقين بأن القانون الذي يوضع لبقاء فرد واحد في عصر
واحد غير القانون الذي يوضع لبقاء جميع الأمم في جميع العصور ،
وإننا لو سألنا ساخطاً متمرداً على الكون أى الحكمتين أعم
رحمة وأوفر خيراً : الحكمة التى تضع القانون الأول أو
الحكمة التى تضع القانون الثانى ؟ لما تردد فى الجواب .
وحيث نعلم أن نظاماً ترسمه الحكمة الخالدة لا يمكن أن تكون
سعادته وقفاً على مخلوق يولد اليوم ويموت غداً ، وإن السعادة
المطلقة للفرد معناها الإبادة المطلقة للنوع ، وليس أرحم من
حكمة تفدى الوجود الإنسانى قاطبة بسعادة واحد منه .
ولكنها رحمة لا نعلم أى الناس أحق بظهور آيتها فى أعماله
وآماله لأننا لا نعلم غايتها ، وإذا جهلنا هذه النسيبة فنحن
لا نجهل حقيقة ثابتة مقررة لا مرأى فيها ولا جدال : وهى أنه
ليس فى العالم فرد أو شعب مهما عظم اقتداره واشتد سعيه
وضخمت أهيبته وأحكمت تديراته يحق له أن يزعم أنه قد صنع
فى مدته الزائلة ما يؤهله لأن يستوعب غاية الكون الأبدية
فى غايته الموقوتة ، فإذا هو اقتدر وسمى وتأهب ودبر ثم كان

من غاية الكون أن لا تتحقق غايته كما يريد لها وتخيّلها فكل ما في الأمر أن غاية الكون أكبر من غاية هذا الفرد أو ذاك الشعب ، ومتى تعارضت الغايتان - ولا بد أن تتعارضنا في حادثة من الحوادث - فلا ظلم في تضحية الصغرى منهما لأجل الكبرى ، بل الظلم أن يُدرك بمجهود أحد الشعوب ما لا يجوز أن يُدرك إلا بمجهود الشعوب كافةً ماضيها وحاضرها ومستقبلها . وقد يأسف الإنسان لهذا القضاء أسفاً يقتل نفسه وينغم على عقله ويشل حواسه وطبائمه فيقف حائراً لا يدري بم ينصح الذين يريد لهم الخير ؛ وقد يرى أن الشر والخير سواء في أداء غاية الوجود وأن فوز الشعب الخامل قد يفضي إلى أسباب هذه الغاية كما تفضي إليها خيبة الشعب العامل ، فكيف ينصح لهذا الشعب أو ذاك بالجهد والعمل ولا ينصح له بالتواني والجمود ؟ وكيف يقيس الأعمال بعضها إلى بعض وليس لديه المقياس الذي تقدر به نتائج هذه الأعمال ؟ وماذا يقول وماذا يصنع وكل قول ككل قول ، وكل صنع ككل صنع ! وهذا أعظم ما يتلى به العقل من ضروب الخيرة ، وربما غله وقيد حركته وأياسه . ولكن العقول الكبيرة لا تلبث أن

تنصل من هذه الخيرة مطمئنة صافية ولن تضرها شيئاً إذا سلم
الجسم من رجة صدمتها . فتعلم أن الظلام الذي كان يغشاها
ويلفها في كفن الخيال والتردد ليس هو ظلام العماية المخيمة
على أعين الأقدار وإنما هو ظلام ينتهي إليه كل بصير يرمى إلى
ما وراء طفاوة النور المفاضة حوله ، ويثبت عنده أن ما أعتته
من الألم اللاذع إنما هو ألم العجز عن استشفاف حجب المستقبل
البعيد لا ألم الكون المتخبط في فوضى ذلك المستقبل ، ويعزيه
عن هذا العجز إنه لم يؤت العقل ليضبط به أعنة الحوادث
ويصرف به مقادير الخلق ويسيطر على قوائين الأرض والسماء ،
وليس من الحرمان أن تنقصه هذه القدرة ويعوزه الحكم على
أمور لا سلطان له على تصاريفها ، ولا يده بتعديلها . فهو إما
أن يعامها ويقبض على أزمته ليطمئن ويهدأ — فلعمرى ما أعظم
التمن الذي يطلبه من الكون جزاء اطمئنانه وهدوئه !! إذ هو
ثمن لا يقل عن التحكم في نظامه تحكم الأرباب الخالقين ...
وإما أن يجهلها وهذا قصاراه ومبلغ حقه على الكون فلا يذهب
به القاق وراء حده ولا يحسب أن كل مجهول فريسة الجهل
وان كل غيبوء ضائع ، وان البلاء كل البلاء على من يجيئون بعده

انه جهلهم ولم يشرف عليهم . ولعله بعد ذلك يرتاح إلى هذا الذي كان يحيره ويضله ونعني به اختلاف الجزاء عن العمل فيأنس فيه أثراً من اللطف بالناس ومدعاة إلى التعادل بين أنصبتهم ، لأنهم لو جزموا بفوز كل متفوق في مقدرته وأهبتة لما بقي لمن تسد في وجوههم أبواب التفوق أو تحول الحوائل يوماً من الأيام بينهم وبين المقدرة والأهبة سبيل إلى مطمع في الحياة - على أن يأس المغبون إذا تمادى به الحزن ولج في الإستسلام لن يجتث من طبائع الناس بواعث الحياة والتجديد ولن يطمس ذلك المعين الفوار في صدر الإنسان فهو من قديم الزمن ينحصر من جانب ليطغى من جانب آخر وينعوض هنا لينبع هناك ومهما سلم لهذا المخلوق كيانه وحوادثه وأواصره التي تربطه بالمخلوقات أمثاله فينايحه معه موفورة وافية ، وأصوله فيه مستقلة نامية ، بل معه على غير علم منه مبادئه ومصائره ، وأسلافه وسلائله ، ونعيمه وعذابه ، وأصنامه وأربابه ، لا يضعفه حملها بل يقويه ، ولا يشقله احتوائها بل ينشطه ويحييه ، وما هو بضائره أن يختل حكمه على حكمة الوجود أو يكثر من التأويل في افتراض أوائله وأواخره مادام ذلك لا يخرج

من قلب هذا الوجود أو ينحيه عن مؤثراته ، فليبدأ أول الوجود
أى مبدأ ولينته آخره أى منتهى فإنما قلبه هو قلبه وصميمه
على تعاقب الأزمان هو صميمه والإنسان عالق بحياته في هذا
الصميم لا في أوائله الأزلية ولا في نهايته الأبدية . فهو أيا
عاش أحاط به هذا العالم وحيثما نظرت له عين تحسن أن ترى
فتم شئ لها تراه ، وأينما وجدت نفس تحسن أن تدرك فتم
حقائق أمامها تدركها ، ولن تظماً حاجة من حاجات النفس
وهذه الموارد باقية . اللهم إلاتك الحاجة المحكوم عليها بالظماً
الأبدى ، والتي تموت إن رويت : وهى الحاجة إلى الكمال ،
وبها تم الحاجات جميعاً ، ومن قبلها يجذبنا زمام الغيب القدير -
هذه ينايع الإنسان التى يعول عليها : كلما أضع أملاً أخرجت
له أملاً جديداً . وكأنها خزانة الجدة العجوز تتربص بالأبناء
المسرفين حتى يقنطوا ويضيقوا ذرعاً فتفرج أزمهم وتسرى عنهم
وترزدهم بالنصائح الموقفة لهم . وهذه الجدة العجوز لا تبض
لك بأمل وعندك أمل خلافة ولا تفتح لك بابها وأمامك باب
سواه ، وربما أقنعتك فى كل مرة بأنك تحرز الأمل الأخير

فلا تكاد تصدقها حتى يتبين لك أنها خزانة لا تنفذ ، وكثر
ذو أوان يفتأ يتجدد ولا يتبدد ! »

في هذا المعنى وما ذهب مذهبه كتبت هذه الرسالة . ولم
أزل منذ دارت في نفسى هذه الخواطر أسمع حجة واحدة هي
أكثر ما يورده الناس على فساد نظام الكون وهي مع ذلك
أوهن الحجج وأظهرها بطلاناً ، وتلك الحجة هي تباين
موازين الجزاء وتنزلها على خلاف المقرر المسلم به في عرفهم .
فهم يقولون : أما كان العدل يقضى بالتسوية بين الناس في
منازلهم وحظوظهم ؟؟ أليس من الغبن أن يفتخر الشاب
ويؤخر الهرم ، وأن يحرم العامل ويُعَدَّق على العاجز وأن يرتفع
الوضع ويتنزل الكريم ؟؟ وإن كان هذا مراد الأقدار أفما
كان في وسعها أن ترضى كل مخلوق بنصيبه وتغنى كل طالب
عما ليس في يده ؟؟ وازدادت هذه الشكوى بعد الحرب
الكبرى فسُئمت في كل مكان وكان لها فعل عجيب في تغير
الأحوال وستسمع في كل حين ما دام الاختلاف بين الناس
فتكون من أقوى دوافع التيار الإنساني
والشاكون بهذا اللسان لا يداخلهم الريب في عدل شكواهم

يبد أنهم ينسون أن أنانيتهم هي الشاكية المتلهفة على التغيير
وأن ليس العالم هو المفتقر إليه ، المتوقف نظامه عليه ، وإن
أحدهم ليقول في أيام رضاه ما لا يقول في أيام سخطه ثم يتقلب
أمله في حالتى الرضى والسخط ... فهل يريد أن يتحول العالم معه
كلما تحولت به الصروف وتقلبت عليه الآمال ؟ ؟

يشكون من تفاوت الأعمار والحظوظ وهم إنما تعجبهم من
الرجل شجاعته وهمته وجوده لأن الأعمار مجهولة ولن يكون
لرجل على رجل فضل بشجاعة أو همة أو وجود لو زالت
المخاطر من الدنيا وتساوى الناس فى الآجال أو أمنوا الموت
إلا فى وقت معلوم . فإذا أمن الشيب والشبان فهل يرضيهم هذا
العدل الذى لا تعيش معه فضيلة ، والذى يجعل الإنسان أشبه
بالإنسان من اللبنة باللبنة ، فتبطل جزايا البأس والذكاء والأريحية
والبروة : لا قائد ولا مقود ولا سيد ولا مسود ولا حاسد
ولا محسود ولا تتشعب علوم أو تنوع صناعات أو تتعدد
خصال وأعمال أو تتفرع أجناس وأديان . فأى دنيا تكون
هذه وأى حياة ؟ ! إن هؤلاء الشاكين لو أسند إليهم أمر
الكون لحاروا فى تصور هيئة غير هيئته ولهدموه قبل أن

يؤسسه لأنهم يحسبون أن العالم إذا احتاج بعض أجزائه إلى متم من أجزائه الأخرى كان ذلك حجة على نقصه في مجموعه فتراهم ينكرون الفوضى والفوضى ما يطلبونه ويريدون العدل والعدل ما يتبرمون به . إذ كيف يكون العدل في غير نظام وكيف يكون النظام في غير اختلاف؟؟ أليس قضاء على الكون بالعدم ألا يختلف جزء منه عن جزء في شيء من الأشياء؟؟ ثم أليس من الجور والخلل أن تتفاوت أجزاءه في خصائصها وصفاتها وتتساوى في أعمالها ومزاياها؟؟ ومتى علمنا هذا فلنعلم أن من تمام هذا العدل في هذا النظام أن يسلب الناس الرضى به كما سلبوا التساوى فيه . لأن الرضى حائد بهم إلى التساوى ، والتساوى حائد بهم إلى الفناء . ولن يرضى الناس إلا كرهوا التحول وكفوا عن العمل ولن يكف الناس عن العمل إلا تلفوا واضمحلوا . ولنعلم كذلك أن سلامة الأشرار وسوء عقبي الأختيار بعض الأحيان هي قوام الخير في هذه الحياة . وإلا فكيف يكون في الأخلاق فضيلة ورديلة إذا تحقق جزاؤها في كل عمل وفي كل يوم؟؟ وأي فضيلة هذه التي يحملها صاحبها أولاً فأولاً لينال ثوابها كما يحمل الأجير

دفتره يوماً فيوماً وهو على ثقة من قبض أجرته ؟؟ أو ليس
جديراً بالناس إذن أن يحمّدوا هذا الخلاف . وإن كانت
طبائعهم لتتألم منه على رعمها ؟؟ وأن يزداد حمدهم له متى علموا
أن هذا الأثم هو بنية تطلب لذاتها لا عرض يأتي في طريق
ذلك الخلاف المحمود ؟ واست أقول أن هذا الأثم قربان على
مذبح غرض أسمى من الحياة ، ولكنني أقول إنه قربان الفرد
للنوع في سبيل الحياة نفسها . وقد يترقى النوع بهذا القربان
أو يقتصر الأمر فيه على التجدد المتكرر ولكن الحياة وحدها
كافية لمن يحيا ولو لم يتحقق بعدها الكمال المنشود . . . أنظروا
إلى الفرق الذي لاحد له بين العدم والوجود ! ثم انظروا إلى الفرق
الذي لا يحاط به بين الوجود المجرد والحياة الشاعرة الناطقة .
أنظروا إلى هذا الفرق ما مسافته من الزمان وما عمقه من
الإحساس والإدراك وما حده من الجمال واذكروا أنكم
تتمتعون في كل لحظة من لحظات عمركم بالفرق السحيق بين
العدم والحياة . . . اذكروا أن روح الوجود تثب فيكم
كل لحظة من تلك اللحظات من هاوية العدم إلى قلب الدنيا
النابض الجياش ! وبأهلها من وثبة . . . ما أعظمها وأجلها وما

أكبر فرح النفس بها !!! واذكروا أن أحقر عمل يأتي به المرء في حياته بينه وبين العدم مسافة لا تُعبر وأن من جلائل أعمال الحياة ما يجعل الحياة الحقيرة كالعدم فتري أن الموت أهون عليها من فقدته . ولعل أضعف ممن يحتقر الحياة إيماناً بمظمتها أولئك الذين يجعلون بعض الحياة غرضاً لكليهما : أولئك الذين يحسبون أنهم إذا قالوا أن غرض الحياة اللذة أو السعادة أو القوة كانوا أبعد عن الهذر ممن يقول أن الغرض من النبات امتصاص زبدة الطين أو اجتذاب ألوان النور . الذين يزعمون أنهم إذا فرقوا بين حياة مرضية في نظرهم وحياة أخرى غير مرضية لا يطالبون بالفرق بين الحياة والموت — هؤلاء ضعاف الإيمان بالحياة لأنهم يتجاوزون عنها اكتفاء ببعضها ومثلهم في ذلك مثل المختلفين على الغرض من تكوّن البحر فيقولون تارة إنه اللآلئ والجواهر وتارة إنه إنشاء السحب وتلطيف الهواء وتارة إنه التيارات والرياح وتارة إنه المد والجزر وتارة إنه تقل السفن عليه والحقيقة بعيدة عن كل هذا وليس البحر بحراً بلحمة هذه الأغراض أو لواحد منها . وكذلك الحياة لا تحصر أغراضها ولا تدفع بنا إلى الأغراض التي تفهمها

عقولنا . فمن أراد أن يفهم فرضها فليساألها تجبه في نفسه لأن
السائل هو الجواب بل هو كلمة من لغتها المكتوبة الناطقة
بفرضها وعلى قدر ما في هذه الكلمة من المعنى يكون حظ
السائل من فهم جواب الحياة .

فلنفهمها بلغتها ولا نحاول التعبير عنها بلغتنا وأقرب ما نشبه
به تلك اللغة المبدعة أنها وحى ناطق بالمجاز كما من في العقول
والقلوب والأرواح والحواس تكتبه بطريقة تصويرية كطريقة
المعبرين عن المعاني بزموز الكتابة المصورة . فتنبت شجرة
لتقول النضرة والتماء ، وتنشئ ريعاً لتقول الحب والرواء ،
وتسرح حرباً لتقول التنازع على البقاء ، بل تبدع كوناً لتقول
الله والسماء . أو هي تصور ولا تلفظ ونحن نفسر ولا نقرأ .
وقد صورت حقائقها مرة واحدة في كتاب واحد نحن حروفه
وكلماته وأرقامه فلا نحاول أن نكون قارئين محيطين بهذا
الكتاب وحسبنا منه ما ننطوي عليه من مغزاه .

ولقد كان تأليف هذه الرسالة وطبعها في إبان الحرب
الكبرى : تلك الحرب التي بلغ فيها الصراع بين المبادئ

والأهواء ما لم يبلغه في حروب العالم قديمها وحديثها . فبعثت
مخلفات القرون الأولى في نفوس الناس وقلقت دعاتها كأنها
اعتزمت أن تنشئها نشأة جديدة ، فشككت قوماً كانوا
يؤمنون وجذبت إلى الإيغال قوماً كانوا يشكون أو ينكرون
وخيل إلى أناس أنها الوقعة الفاصلة بين الحق والباطل لا تقوم
للمتهور منها قاعة بعدها . وربما كانت هواجسها هذه مما
حركنى إلى استعراض الخواطر التى كانت تدور بخلدى من قبل
ثم إلى تدوينها فى هذه الرسالة - والآن وقد انتهت الحرب
نهايتها وجاءت بما فى الحسبان وما ليس فى الحسبان أرائى
لا أجد فى أسبابها أو أدوارها أو نتائجها تفسيراً جديداً
للمنازعات بين الناس . فالحريق هائل ولكن النار قديمة .
وأن عود الثقاب ونظام المجموعة الشمسية ليستمدان النار من
مصدر واحد . وقد يلخص كل ما صنعتته الحرب فى جملة وجيزة :
وهى أنها عجبت التدرج القديم المطرد فى نقل الحكم من أيدي
الأقلين إلى أيدي الأكثرين ، وسوف يكون لذلك شأن
خطير فى تصريف أعمال الأمم وضبط ماملاتها وعلاقاتها .
إذ من البديهي أن الفرق بعيد بين حكومة لا تحمل خطراً

كبيراً أو صغيراً ما لم تحتمه مطالب الأكثرين ممن تلحق بهم
منغته ، وحكومة أخرى كالحكومات المعهودة تحتل كل
الأخطار إرضاء للأفراد المعدودين من المتربعين في دسوتها
ولا أزال أعتقد بعد الحرب كما كنت أعتقد قبلها أن الغيرة
على الحق هي روح الإنسانية أو هي مظهر أنايتها وحب البقاء
فيها . فإذا هي رضيت لأمة أن تستنزف موارد الأمم بغير الحق
ثم اطمانت إلى هذه الحالة فقد آذن ذلك بانحلالها . وكان منها
بمثابة ضعف الوطنية في الأمة وضعف الحيوية في الفرد .
وكلاهما نذير الفناء .

وأختم هذه المقدمة كما ختمت الرسالة قائلاً : اسمعوا صوت
الطبيعة : اسمعوه همساً قبل أن تضطركم إلى سماعه زمجرة ووعيداً .
وليسمعه كل حي على شاكلته : يسمعه الشرير فيتمادي في شره
وتسمعه الأمة فتتقضى على ذلك الشرير ، وتسمعه الإنسانية
فتندجى على الأمة التي تفرط في حقوق الحياة ، أو التي تمسخ
عناصرها الباقية في الأمم إيثاراً لمنافعها المحدودة . وما دام هذا
الصوت مسموع النداء . فالعالم الإنساني ممدود البقاء

عباسي محمود العقاد

القاهرة في ٨ يناير سنة ١٩٢٠

الغاب

أين أنا؟؟ وماذا أرى؟؟ ومن ذا جاء بي إلى هنا . . . ويقظة
هذه أم حلم في الكرى؟؟ أم جاء بي إلى هذه الأرض النائية
متصرف فعال لما يريد أحب أن ينزل في روعي أن الدنيا
ليست كلها قصوراً باذخة ، وأرائك شائخة ، ومعامل وأسواقا ،
ومحابر وأوراقا ، ومحافل وجحافل ، ومساهر ومساخر ، ودرهما
ودينارا ، وفضة ونضارا ، وأن المرء قد يحيا حفل حياته وينظر
مدى عينيه ويسمع شبح أذنيه ويحب ويغض ملء قلبه
وينتفش وسع نفسه وهو لم يمطف على لندن ونيويورك
أو يسمع بيابل وبنغداد ولم يقرأ فلسفة أرسطو وسبنسر
أو يطرق أذنه اسم هومر وشكسبير وأنه يقصد كل القصد
في إنفاق ساعاته وهو لم يركب البخار ولا طار في الهواء
ولم يستخدم النار ولا سخر الكهرباء . فهل هذه إرادة

ذلك المتصرف الفعال لما يريد ؟؟ وهل أفلح فيما أراد ؟؟
أنا الآن في قلب أفريقية ، والذي أراه حيا لي غاب أشجارها
باسقات تطالع السحاب من أم وجذورها غائرات تذهب في
طباق الأرض ذهابها في القدم . يلجأ إليها الهواء فكأنه لاجئ
إلى حصن ، ويقع عليها الضياء فلا ينفذ إلا باذن . اشتبكت
أعالها فكأنها السقوف ، وهالت مداخلها فتقول هي سراديب
أو كهوف ، ظلالها أثبتت على أديم الغبراء من أصباغ القراعنة
القدماء ، لا تنسخها الشمس الساطعة ولا القمر الزاهر .
وأصولها أعمق في قرار الأرض من قبر آدم وحواء ، لا يالحقها
ظن الفاحص ولا يتعلق بها وهم الحافر . وفيها من الأحياء ما لا
يوجد في أعمار الحواضر عداه ، ولا ينتهي على طول الزمن
امداده . كواسر صارخة ، وعصافير صادحة ، وهوام صافرة ،
زاحفة أو طائرة ، ووحوش زائرة ، ودواب هادرة . يضرب كل
منها على نعمته فيتألف من لفظها المختلف موسيقى الطبيعة
المبدعة التي لا تعباً شيئاً بصناعة الموصلي ودحمان ، ولا تحفل
فتيلاً بأفانين واجنر وشويان : والأزهار ناخحات العطر تنثني على

الشمس بالآثها ، وتبرز لها بما كستها من حلل أضوائها ،
فكأنما هي بأشجارها وأزهارها وأمواها وثمارها جنة متوحشة
متأبدة تأوى صنوف الحيوان وتأنف أن تكون لهواً وترهة
لبنى الإنسان .

أوغلت فيها وبي من حب الاستكشاف فوق ما بي من
محادرة الخطر ، فما توسطت رحبتها حتى لاحت لي على بعد امرأة
جليلة الهيئة شريفة الطلعة فدنوت منها فلم أكد أصدق ما أرى
- رأيتها مفتوحة العينين لكنها ضريرة لا تبصر ولا تحيد ،
وتثلت لي وقد أخذ يمينها قائد خفي يتبينه النظر بعد التأمل
المضجر والتفرس الشديد . فأدهشني حالها واختبأت أنظر ما شأن
تلك المرأة في هذه البقعة . فاذا هي تقول بصوت جهير مطاع .
سلامًا يا ساكني الغاب . سلامًا يا أبناء الحياة . سلامًا يسلم
غل الصدور ويصلح ما بين الواتر والموتور ! إلى يا أبنائي فأنا
أمم الحياة جئتكم في يد القدر أدعوكم لأمر خطير !
وما كان الا كلعح البصر حتى مادت الغاب بكل شاهق
وزافر مما يمشى على قدمين أو يدرج على أربع أو يطير على

جناحين أو يزحف على بطنه . أو يتلوى على نفسه . أقداراً
متفاوتة وأشكالاً متباينة وألواناً متنافرة من حيوانات وأناسي ،
فيهم الشمالي والجنوبي ، والشرقي والغربي . وكلهم ينسلون
صوب ذلك النداء . نداء الحياة المطاع .

فلما علمت أن المرأة الماثلة أمامي هي الحياة ! الحياة التي
يعبدها الناسك في الصومعة والعرييد في الحانة ، الحياة التي تحبها
الدودة المتقلبة في الأقدار والشاعر العارج في ملكوت الخواطر
والأفكار ، والحياة التي يرضن بها الطفل ابن ساعة والشيخ ابن
مائة وعشرين حجة ، والحياة التي لا شبيه لها في الكون ولا نظير .
تقدمت أتأملها فلا أكذبك أيها القاري أني وجدت بها
شياطين ومعائب كثيرة لا تبدو لأول نظرة ، ووجدتها تموه تلك
الشياطين والمعائب خفية وجهرة ، وكأنني نظرت على صدرها
تميمة من تائم السحر أظنها لبستها لتفرم الأنظار بها ، وتمعي
القلوب عما لا يستحسن منها ولكن لمحاسنها مع هذا معاني
ماكرة يفتتن بها عاشقوها وهم أبناءها - مهما خدعتهم
وعذبتهم وعبثت بهم . فلو سألت أيا كان في ذلك الحشد

المختلط لقال لك أنها فتانة القبح والجمال ، قتالة الصد والمطال ،
هذا وهي ملاحت قط لواحد منهم كما تلوح لجاره ، ولا ظهرت
لأحدم في زى واحد بين لياه ونهاره .



وقفت تلك المرأة العمياء المقودة بيد القدر وقد لزم كل
مقامه وأنشأت تقول : —

خطاب الحياة

أتدرون يا بني لم دعوتكم ؟؟ دعوتكم لما شجرت بينكم
شواجر البغضاء وتقطعت بكم أسباب الرحم فعدا بعضكم على
بعض وأصبح الحى منكم ينظر إلى سائر الأحياء، كأنه الحى
وحده وهى أحجار صماء، لا شعور لها، ولا رغبة فى البقاء عندها
أو هو لا يعرف فيها الحياة إلا ليراها أصلح لخدمته، وأهيب
من المادة الجامدة لسطوته .

هذا وأنتم جميعاً أبناءى أرضعتكم لبانى وسرت فى عروقكم
دمائى . وميزتكم عن الجماد فجعلتكم جنداً لى على أعدائى .
يؤلمنى الألم فى أصغركم وأوضعكم كما يؤلمنى فى أضخكم وأرفعكم
وأعالج من الأوجاع والحسرات لمفارقة الجثة الناقصة الدقيقة
ما أعالجه لمفارقة البنية التامة القوية .

غركم تباين خلقكم وتعدد سماتكم وسحنكم فخلقتم أنكم
شتيت مفاول ونير مبدد لا تفيثون إلى أصل ولا تلتقون عند
غاية . فهل نسيتم أن كلمة الأحياء تشملكم ؟ وأن الموت عدو
لكم ؟ وأتم بين جنوده وعناصره في هذا الكون وحدكم ؟؟

فاليوم أجمعكم في هذه الغاب ليمشي بعضكم إلى بعض
بالسلم فتعصموا به ؟ وتتناصحوها فيما باعد بينكم وأولع بعضكم
ببعض فتقلعوا عنه ؟ ذلك أولى لكم من هذه الشحناء التي
شقت عصاكم وأشمتت الجماد بكم وصيرت بعضكم يتمنى لو أنه
صخرة جامدة أو جثة خامدة ؟ ويحسب الحياة لعنة عليه وعلى
الخلق أجمعين

إنكم تفهمونني جميعاً وتفقهون ما أوحى إليكم به الآن .
لكنكم لا يفهم بعضكم بعضاً ولا يعي أحدكم سريرة صاحبه
إلا رجماً بالغيب وأخذاً بالظن . فليكن لكم ما دمتم في هذا
الحشد علم الإنسان وبيانه وبصيرته ، ولتشرب أرواحكم فنونه
وتوارخه وأديانه . تتعاونون بها على التفاهم والإبانة عما في

سراثركم : أما طبائعكم فحافظوا عليها جِد المحافظة فإنها دليلكم
فيما سينطق به كل منكم عن رغبته وفكره ، والمعالم التي تميز
بين أحدكم وغيره ، وهي قوام أنفسكم وملاك وجودكم ، وليس
التجاوز عن هذه المعالم بأسهل على أو عليكم من التجاوز
عن الحياة .

فابدأوا باسم الخلاق الحكيم . وتكلمى يا يمامة فإنك رمز
السلم والسلامة . قرن الله بهما عملكم وأظل بهما في التفرق
والاجتماع شملكم .

فجأروا بلغة واحدة وصوت واحد بين زئير الأسد وصرير
الجنديب : آمين آمين .

وقبل أن تبدأ الإمامة خطابها نظرتُ أنصفح ما حوته
الغاب من تلك الوجوه فسرعان ما توسمت العقل والمعرفة
والتؤدة في الأناسي منهم والوحوش ، فقلت تالله لقد أخطأت

الحياة فإني لا أرى هنا إلا خلقاً واحداً . سوى أن هذى
دواب في أشكال الأناسى وهذى أناسى في أشكال الدواب !!



ثم صعدت اليمامة على ذؤابة شجرة عالية وهتفت قائلة : —

خطاب اليمامة

معشر الأحياء :

قال تعالى « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض
ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض »

ومصدق هذه الآية الكريمة يا بني أمي قائم في ملك الله
الواسع أني ذهبتُم بأبصاركم . فقلبوا الطرف فيما حولكم هل
ترون اليمام والزرارير أكثر أم البواشق والنسور ، وهل البقر
والشاء أبقى على القتل والذبح أم الأسود والنمور ، وهل صغار
الأسماك أوفر وأغزر أم كبار التماسيح والحيتان ، وهل أنواع
الحيوان أجَمّ وأنمى أم قبائل الإنسان ؟؟

فإن تبينتم — ولا بد أن تتبينوا — أن الكثرة في جانب
الضعف فتدبروا ذلك تعلموا أن الله لم يخلق المخلوقات المستضعفة
عبثاً وأنه لم يقدر عليها الفناء مذ خلقها ضعيفة كما يفترى أولاد

الشر ومستحلو دم البريء . بل وهب لها من إرادة البقاء ما وهب لعامة الأحياء ، وتمت فيها هذه الإرادة بالكثرة كما تمت في سواها بالقوة . فالجناية عليها جناية على إرادة البقاء ، والسطو على حياتها انتحار في صورة اعتداء .

ولقد سمعتم أمنا الرؤم تنادىكم قائلة لكم : إننا رضعنا جميعاً من لبنائها وأنه إذا نسب الأبناء فكلنا بضعة من جثمانها وأنها تتألم في أصغر حى إذا مسه الألم ، ويشق عليها أن تخرج منه ليستولى عليه العدم ، وقالت لكم أن أخذكم الحى أخذ الجمد الذى لا يحفل حالة من حالاته مضيع لمعنى الحياة حاطاً من شرفها . فيزوا بين المادة الصماء واخوانكم في رغبة البقاء .

إن بعضكم ليقلق أحشاءه الجوع ساعة فما هو إلا أن يساق إليه حيوان ساع نام فينقض عليه فيزهق روحه لينال منه ملء فمه لحماً ثم يتركه جيفة لا حراك بها . وليت هذه الأكلة تغنيه عن الطعام بعدها ، ولكنه يفعل ذلك كما جاع ، ويجموع في اليوم مرات . أفمن أجل شبع ساعة تسلبون حياة هي كل ما يملك صاحبها من الوجود ؟؟ أليس هذا أقصى ما تنتهى إليه عبادة الغرض وتحكيم الشراة ؟؟

ولا يقولن متهمكم منكم : لشد ما تغار اليمامة على تأييد
فلسفة الرحمة بيننا ؟ أفان خلقها الله نسرأ أو أسدأ أ يكون هذا
رأبها وهذه غيرتها ؟؟ فأقول لهذا المتهم : أننى لا أدرى ماذا
يصير من رأبى لو كنت خلقت نسرأ أو أسدأ . على أن الذى
أتحققه الآن وأؤكدده أنه لا نسور الذرى ولا إيوت الشرى
ينبنى لها أن تترفع عن فلسفة الرحمة . إذ ليس من قدير بئس
فيكم إلا وثم من هو أقدر منه وأشد بأساً . وليس من غالب
بالقوة اليوم إلا وهو مغلوب بها غدأ ، وهب القوة انتهت
إلى أحدكم واجتمع له الحول والحيلة فهل أعطاه الدهر أماناً على
نفسه أن لا تقهره الكثرة أو المكيدة يوماً فلا ترعى فيد عهداً
لإحسان ولا ذماماً لحق ؟ وتذره ينادى العدل فلا يجده ، ويناشد
قاهريه الذمة فلا تنجده ؟؟ فاذا نسى الرحمة وهو قادر عليها
فبأى وجه يذكر بها سواه وهو محتاج إليها ؟

أنا إنما أدعوكم إلى دين سواء بينكم يرضيكم جميعاً ولا يظلم
منكم أحداً . دين يحوطكم بحارس من العدل والحق ويرصد
عليكم وازعاً من الواجب والضمير ، فإن صدكم حارس العدل
أو وازع الضمير مرة عن أعدائكم صدم ألف مرة عنكم ،

والعاقل من لم يغتر بيومه وتدبر عواقب أمره ؛ ولأن تسمعوا
هذا اللفتاف مني أجل بكم من أن تسمعوه من الضرورة القاسرة
وأتم بحكمها عالمون .



ولما سكنت اليمامة كان وقع كلامها مختلفاً بين خشوع
وموافقة واستهجان وسخر وجمود . ولم تطل هذه الحال
إلا ريث أن وثب الثعلب قائلاً :

خطاب الشعب

معشر الأحياء :

أنا لا أجهل يا بني أمي أن بينكم كثيراً يتهمونني بالخبث والخسة ، فمن خطر له من هؤلاء أن يشك فيما سأقوله الساعة فليفعل فإني لا أحاول تبرئة نفسي !

وعظتكم اليمامة وأوصتكم بالضعفاء وقالت لكم إن الله بارك في مخلوقاته الضعيفة ليحرم عليكم قتلها . أما أنا فأسلوبي في الوعظ غير هذا الأسلوب وطريقتي في المنطق خلاف هذه الطريقة . أنا أقول لكم إن الله أكثر من مخلوقاته الضعيفة لأنه قدر على أكثرها الفناء في هذا المعترك العصيب . فإن رغبتم في المزيد فاسمعوا ما أقول :

إن شئتم أن تستقيم أحوالكم ويهدأ بالكم ويعرف كل منكم مقداره فانبذوا من بينكم هذه الكلمات الفارغة : العدل والحق

والواجب والضمير . فإنها أوهام يضيع الجهد وراءها هدرًا ،
وعلايات تخدع أصحابها ولا ترد عنهم ضررًا .

فما دام في الدنيا القوى والضعيف ، وما دامت المساواة
مستحيلة حتى بين الفردين من جنس واحد والأخوين من
نوعة واحدة فلا عدل .

وما دام الجهل يغطي على أبصار الجاهلين والخوف
والاضطرار يلجمان أفواه العارفين والأمر يحسن اليوم ويقبح
غداً فلا حق .

وما دامت البرية تحيا بالأهواء وتموت طبائعها بموتها ،
والغاية من الوجود مستورة عنا ، والطبيعة لا تكشف لنا
بواطنها القصوى فلا واجب .

وما دام العدل مستحيلًا والحق معدومًا والواجب مجهولًا
فلا ضمير .

فاطرحوا عنكم هذه الترهات التي ما أظن مخترع القول
والعناء والشيطان أوسع من مخترعها خيالاً أو أقدر منه على
تمثيل المدوم وتصوير شيء من لا شيء .

أطلقوا القيود عن غرائزكم المستقرة في فطرتكم فهي أفضل
من هذه الفضائل التي لا ترجع من طبائع النفوس عالياً وصافها
إلى أساس مكين .

إنكم تدمون الحسد وهو الحافز للكمال والمرغب في المزيد ،
وهل كان امتعاض الحى من أن يسبقه سابق إلا صورة أخرى
لبغض النقص وحب الكمال ؟؟ ولعمري كيف كان الخلق
يتزاحمون على التقدم إن كان أحدهم لا يسوءه أن يتقدم عليه
سواه ولا يشعر من نفسه بالكراهة له والنعمة عليه ؟ ولا أكثر
يا قوم مما قيل في ذم الحسد . فلو كانت خلة من الخلال يستدل
على شيوعها أو ندرتها بما يقال فيها مدحاً أو ذماً لكان حرياً
بالحسد أن لا يوجد في صدر مخلوق ، لكنى أراه عميق المنبت
في الطباع . وما كان إجماعنا على مقتته وإخفائه لأنه خلة ذميمة
في ذاتها بل لأن إظهار الحسد فيه غضٌّ من قدر الحاسد وإقرار
بتفوق المحسود عليه . والخالق القدير أحكم من أن يودع هذه
الصفة في النفوس عبثاً . فلا بد لها من منافع ترجح بما فيها
من المضار . وأقل ما يقال فيها أنها تستفز الحاسد وتغري
المحسود بالحرص على ما في يده والازدياد منه خوف الشماتة .

وأتم تنكرون البغض وهو مسبار المقاومة وعنوان مناعة
الحوزة وسياج النفس من أعدائها . فمن لم يبغض عدوه
لم يحبب نفسه ولم يحم حوزته ، ومن لم يحبب نفسه ويحم حوزته
فهو جدير بالفناء .

وأتم تمافون النفاق والنفاق ديدن الطبيعة والتلون قانونها
الذي لا تستحي منه . ولو لم يكن النفاق أصلاً من أصول
الطبيعة لما كانت جلود الحيوان تتلون بألوان الأشياء التي
تكتنفها لتخدع فريستها أو مفترسها ، بل لما زينت الطبيعة
صغار الذكور والإناث لينخدع بعضهم بجمال بعض فيندفعوا
جميعاً في قضاء غرضها ولا غرض لهم منه ؛ ولما حبيت الآباء
في الأبناء ليدوم النوع ولا أرب لأنفسهم في دوامه ، بل لما
كان لكل مخلوق سر يضمرة ويظهر للعالم خلافه ، ولما كان
لكل أمة سياسة مجهولة وسياسة معلومة . وأعظم من هذا
أن الوجود نفسه له وجهان : وجه واضح ينكشف لأول وهلة
ووجه غامض لا تراه الأنظار .هما نقبت عنه وحدثت فيه .
ولست أنظر في هذا القول إلى نتائج النفاق القريبة ولكني

ناظر إلى النتائج البعيدة التي نجهلها نحن وتعلمها القدرة التي تسخرنا فيما تريد . فنحن نحب أحياناً أن نخدع غيرنا بلا سبب نعرفه ، وأن نستر الحقيقة بلا موجب لكتمانها ، ولو كان مدار الأمر على فائدتنا القريبة التي نعرفها ونسعى إليها لما خفي عنا كنهها ، والحقيقة أننا نفعل ذلك مسوقين مرغمين . وليس من شأننا معرفة أسباب ذلك النفاق وإنما هو شأن تلك القدرة العالية وحدها .

وأتم تستنكفون من الملق والدهان فهلا ذكرتم أن من لم يعرف قدرته فهو النعي الجاهل ، وأن من عرف قدرته فصادم بها من هم أعلى منه يداً فهو الطائش المغرور المستحق لجزاء الطائشين المغرورين . وأن من يملق اليوم عدوه قد يتحكم به غداً ، ولكن من يعاند القادرين يموت فلا هو قضى أربه ولا هو أبقى على نفسه .

وأتم تمقتون الكبرياء ومن لم يمتها منكم مقتموه . وهذا وإيم الله من ظلم الضعفاء ! لأن الكبرياء حق الكبير والإدلال بالمقدرة مزية القادر على العاجز ، والقوى على الضعيف ،

لو حرمانه إياها لظلمناه وجعلناه كالضعيف فلحقت القدرة بالعجز والقوة بالضعف ، ورغبت النفوس عن موضع الفاضل إلى موضع المفضول ، وجنحت عن البطش والجبروت إلى الضوؤولة والاستكانة . ولعمري إن زهو العظيم بعظمته لأمر طبيعي معقول ولكن الأمر المستهجن المقبوح هو أنفة الصغير من الإقرار بتفوق الكبير عليه كأنه يريد أن لا يحس الكبير بكبره ، لا لشيء إلا أنه يحس بصغره إزاءه . وهذا عين الظلم والافتئات (تصفيق من جانب الأسد) .

وأتم تحقون على الأنانية ولولا الأنانية لكنتم الآن في خبر كان ولا تقرض الأحياء وفاز الموت على الحياة في هذه الأرض . إن الخالق لم يودع الحياة في نفوسنا لتبغضها ونخجل من حبها وننضوها عنا لأول من يطلبها منا . كلا بل أودعت فينا الحياة لنفتن بها وننفاني في حفظها ونحتجن إليها كل ما حولها ونطبع صورتها على البعيد والقريب منا . والظافر الظافر من غلبت أنايته على كل أنانية وانطبع أثره على كل موجود . فإن الوجود لا يقوم بقولى إن غيرى أحق بالخير

منى ، بل هو قائم باعتقاد كلِّ أنه أحق بالخير من الخلق قاطبة .
ومتى أصبح كل حي ينبذ عنه الحياة ليأخذها غيره فمن هو إذن
الذى يعيش ويحيا ؟ ؟ وعلى أننا لو فرضنا على المخلوقات أن
تتخلى عن الخير لغيرها ، فما هي في الواقع إلا أنانية مقلوبة
تمشى على رأسها ، وكأننا جعلنا كل مخلوق ينتظر الخير من غيره
لنفسه . فأى شيء صنعنا ؟ ؟ وماذا غيرنا من طبيعة الأنانية ؟ ؟
وأتم تتذمرون من القسوة والاعتداء لأنكم متشبثون
بحياتكم ولو أنصفتم القاسى المعتدى لعرقتم عذره ، فإنه هو
أيضاً يجب أن يحيا كما ينبغي لمثله ، وإذا كان خوف القسوة
والاعتداء من لوازم الحياة عند الضعفاء فلا حياة بغيرها عند
القاتك الصَّوْل . وإن الذى جعله قادراً على الفتك بغيره
هو الذى أمره بالفتك به وخوله ذلك حقاً لا منازع فيه .
وما قتل المرهق المغلوب إلا الذى منحه الحياة وأعجزه عن رد
حادية المعتدين .

وأتم تسمزون من السرقة ولكنكم تعظمون الاغتيال .
إذا تسور لص في ظلام الليل بيتاً فأمسكتموه على هذه الحالة

فضحتموه وشهرتم به فكأنكم تحقرونه لاعتقاده أنه يأتي
عملاً حقيراً يجب إخفاؤه - فإذا سرق فرد أمة أكبرتم
دهاءه وأجلتم حيلته وذكائه . وإذا سطا رجل على شعب
سجدتم لهيبته وتمسحتم بأذياله ... فكأنكم لا تستطيعون أن
تتحقروا إلا من يبالي باحتقاركم واحترامكم وأما من يحتقركم
ويستعبدكم فأنتم وأموالكم طوع يديه ورهن أمره . ولست
ألومكم على ذلك فهذا هو الحق عندي . إذ من شأن الحقير أن
يشعر بحقارة كل عمل يأتيه لأنه لا يحق له إحراز ما عنده بله
السلب من غيره . وأما العاثر المتجبر فليس يصدر منه عمل
حقير لأن من شأنه أن يأمر ويتغلب على من لا يستطيع رد
أمره والتغلب عليه ، فهو لا يشعر بخجل من انتهاب غيره بل
يدع المنهوب يخجل من نفسه ويتوارى عن الأنظار . أما
هو فيرفع رأسه ويشمخ بأنفه على الراضين والمنكرين بلا
حياء ولا مبالاة . وانكم ما اتفقتم على أن يكون لكل منكم
ملك لا يعدو عليه أحد ولا يشاركه فيه غاصب إلا لأنكم
وجدتم في ذلك مصلحتكم . فما هي حجتكم على من لا يجد مصلحته

في قبول هذه الشريعة؟ أو على الذين يرون أنكم ظالمتموهم
بساحكم لمن هم أقل منهم استحقاقاً وأحط فكراً بأن يكونوا
أوفر حظاً وأجل قدراً؟؟ أما والله إن العدل ليقضى بأن
لا تلزموهم شريعتكم وتتركوهم يدينون بما يرون فيه مصالحتهم...
بيد أنكم لا تقضون بالعدل بل تقضون بالغبية. أتم تجبرونهم
على الإذعان لشريعتكم لأنكم أكثر منهم عدداً وليس لأنهم
يتمسكون بمبدأ في التماس الرزق والقوة يخالف مبدأكم. فما
من حجة لكم أو لهم إلا المصلحة دون سواها.

وأنتم تستعجبون العذر فهل قام أمر خطير قط بنير غدر؟؟
ومن كان يطمح إلى المراتب التي يكثر حولها الطلاب وتتقطع
دونها الرقاب ويقف الخلق للطامح إليها بين منافس وحاسد
ومتزلف وكاره. فكيف يجرؤ على إظهار ما يضر والوفاء
بجميع ما يعد؟؟ ومن كان يرغب في التسلط على الخلق بما فيهم
من المحاسن والخبائث فكيف يلتفت إلى محاسنهم وحدها
ويغفل عن خبائثهم فلا يعاب بها؟؟ أليس هذا من الحق
والغفلة؟؟ سلوا الشيوخ وذوى التجارب الذين طال تمرسهم

بالأهوال والمصائب وحضيت أقدامهم سعيًا وراء الآمال
والرغائب : كم غدروا ونكثوا وظلموا وكذبوا مكرهين أو
طائعين لأجل أمل صغير أو خوفًا من ضرر يسير . فما بالكم
بمن يتصدى لأعظم الأوطار ويتعرض لأهول الأخطار ؟؟
ولا أقصر القول على الشيوخ لأن الشبان لا يغدرون ولا
ينكثون ولا يظلمون ولا يكذبون ، بل لأن هؤلاء يآثمون وهم
جاهلون ما يفعلون . وهم يسمون الأشياء بغير أسمائها ويأتون
الأمور من غير أبوابها . فإن كان فيهم من هم أطهر من الشيوخ
قلبًا وأصدق لسانًا فذلك لأنهم لم يخوضوا غمرات الدنيا ولم
يتجرعوا مرارتها ولم يبطأطئوا رؤسهم لضروراتها التي لا تقبل
عذرًا ولا تسمع للضمائر والأخلاق صوتًا . ولو علموا كما يعلم
الشيوخ أنهم قلما يقدمون على عمل إلا وهم بين ضرورتين أو
أكثر لكان الشبان كالشيوخ والشيوخ كالشبان .

وأتم تقولون لا تخن من ائمتك فليت شعري إن كانت
لك لبانة لازمة أتقضيها ممن يوجب منك ويستعد لغدرك
أم ممن يطمئن إليك ويثق بك .

وأتم تردون من لا غيرة له ولا حمية عنده لعرضه . وكأى
من لازم فيكم يهمس : هذا فلان العظيم كان يعلم عن زوجه
ما يكره وكان يتغاضى عن الشبهة وإن كانت لتنفقاً عينه طمعاً في
مسعدة أو اتقاء لناوأة . . . فهو نذل يدنس العظمة ويلوث
الرئاسة . . . رويدكم أيها السادة !! هلا قاتم إن شغفه بالمجد
أكبر من شغفه بزوجه وأنه أشد على المجد غيرة منه على امرأة ؟
وهلا عرفتم أن البصقة تلوث الكوب . ولكن ألف جيفة
لا تلوث البحر المتعوج اليعسوب ؟؟ وزعمتم أنه نذل مزدري
فهلا قاتم إنه يزدرى العالم حين يترفع عن أحكامه ومصطلحاته
ويستجهل الدنيا حيث يراها تعبد المجد ثم لا تأنف أن تضع
مفاتيحه بعض الأحيان في يد السفاسف والشهوات ؟؟

وكم ذا أفصل لكم أيها الأحياء ما أتم مليئون بعلمه لو
انتبهتم إليه . فاعلموا يا إخوتي أن الحسد والبغض والنفاق
والملق والكبرياء والأنانية والقسوة والسرقة والغدر والخيانة
والتغاضى عن العورات ألصق بكم وأقرب إلى طباعكم
وأجدى لكم من العدل والحق والواجب والضمير . فهللوا بنا

تقذف بهذه الأوهام في عرض اليم ولا تأخذنكم باليم رحمة...
فيطلق القوى يده غير حاسب حساباً ولا متوقع عتاباً أو عقاباً.
ويخلد الضعيف إلى ضعفه فيرضى بالخسف ولا يشكو من
العسف متعللاً بالعدل الذي لا يسمع نداء الضعفاء، والحق
الذي لا يقوى على كبح جماح الأهواء، متعلقاً بالواجب
الأعمى والضمير الموسوس. والنفس إذا علمت أن لا مفر لها
مما يصيبها وإن الأقوياء لا يتجاوزون حقهم ولا يخرجون عن
خدم في عدوانهم عليها وإنه لا مهرب لها من هؤلاء الأقوياء
إلا إلى قوة مثل قوتهم لا قبل لها بخلقها؛ هان عليها احتمال
بلائها وصبرت على بنى ظالمها - فاسمعوا أيها الأقوياء: هذه
حقوقكم ومزاياكم واسمعوا أيها الضعفاء: هذه علائكم وسلواكم.
وآمنوا إن كنتم تعقلون.



ولما فرغ الشعلب من خطابه بهت الجمع فوجهوا ساعة
لا ينطقون لفرط ما بدتهم آراؤه المرعبة ، فلما تابوا إلى أنفسهم
ضجوا ووضجوا فعلا التصفيق من جانب والصفير من جانب
وكادت تكون فتنة ولبثوا كذلك في اختلاط ولجب حتى هدأت
ثأرتهم فسمعوا القرد يقهقه قهقهة عالية ويقول : لله درك
يا ثعالة : ما أدهاك في صراحتك وأعظم كيدك في نصحك
وأشد محاباتك وتديسك في إخلاصك ! . . لتقليل^ل والله عليك
أن يجزيك أبو الحارث على هذه الخطبة البليغة بتفص من
الدجاج . . وتوجه إلى الجمع وهو يقول : لعلكم تضحكون من
تصدي للشعلب وتولى الرد عليه والذب عن الفضيلة فاضحكوا
مابدا لكم فهاهي بأولى مضحكاتي وما أتم عن الضحك
بمسكين . ثم ظهر عليه الجمد وتبها للإغناء خطاب طويل
جليل فقال :

خطاب القرد

معشر الأحياء :

ليس بأهلٍ لعظيم من الحظ ولا يسير من لم يكن عنده
من صدق الزئمة وحسن البصيرة ما يلهمه شراء الآجل الكبير
بالعاجل اليسير .

ألا وإن الحياة معشر الأحياء لا تسلم لمن طلب الحياة
فحسبُ ، أما من طلب غاية فوقها فتسلم له الحياة ويسلم له
ما فوق الحياة .

ومن تمسك بالقوة وحدها أضعاف القوة وتدلى إلى الضعف .
وأما من تطلع إلى أعلى منها فذلك الذي تدين له القوة ويدين له
ما هو أعلى من القوة .

كذلك يا قوم من قنع بالكفاف عز عليه الكفاف ومن
طمع في الغنى ينال الكفاف وينال الغنى .

فإذا علمتم هذا فاعلموا أن العدل والحق والواجب والضمير لو كانت مجهولة لوجب اختراعها ، ولو كانت أوهاما مخترعة لوجب اتباعها ، لأن العدل فوق المصلحة والحق فوق القوة والواجب فوق الهوى والضمير فوق الشريعة . فمتى أردنا أن نظفر بالمصلحة ونتصرف بالقوة ونتمتع بالهوى ونصون الشريعة فعلينا بما فوقها . علينا بالعدل والحق والواجب والضمير .

أنا لا أنهج أيها السادة نهج المجادلين فأتتبع كل كلمة قالها الشاب بالتنفيذ وأبطل كل حجة أتى بها وأدحض كل رأى ندب إليه كأن الحق لا يقوم بين اثنين حتى يكون أحدهما مصيباً لا موضع عنده للخطأ أو مخطئاً لا موضع عنده للصواب . فقد أرى الصواب في كثير مما قاله الشاب وأوافقته على معظم مقدماته بل على ظاهرها كله . ولكنى أراه عرف شيئاً وغابت عنه أشياء . وربما نظرت مثله إلى العالم فألفيته طامحاً بالشر مكتظاً بالرديلة حتى إذا نظرت إلى النتائج البعيدة والغايات الأبدية احتجب الشرعنى فلا أرى إلا خيراً محضاً .

فأما إن القوة عماد الحياة وأساس الحق وبنية كل نفس وأنه يحل لها ما لا يحل لغيرها ويدرك بالجور والغدر أحياناً ما لا يدرك

بالعدل والوفاء فهذا صحيح لا ريب فيه . ولكن أية قوة ؟؟
وإلى أى حد ؟؟

ليست القوة ضرباً واحداً ولكنها قوتان : قوة السيل
الجارف العرم تجتاح السدود وتدمر الصروح وتهلك الحرت
والنسل وتطغى على العامر فتخربه وعلى الغامر فلا تعمره ثم تسيح
على وجه الرمال فتذهب جفاء وينتهى بذلك أمرها كأن لم
تكن شيئاً مذكوراً . وهذه قوة الخراب .

وقوة الينبوع العذب المتفجر الفياض تنسرب في مجاريها
وتسرى سربان الدم في العروق فتروى العطاش وتصلح الموات
وتنبت على ضفافها الخيرات وتنشأ فوقها المدن الآهلة فيها
سكن للناس ومستراد ، والمروج الناضرة فيها مسرة للناظرين
ورزق للعباد — وهذه قوة العمار .

القوة قوتان — قوة البخار الهائم تعمى الأبصار هبوته ،
وتلفح الوجوه وقدمته ، وتتبدد في الهواء حركته . ثم يمحي أثره
وتغيب عن الأبصار صورته — وهذه القوة الطائشة .

وقوة البخار المضطرب في المراجل يسير الجبال ويضعف
ثمرات الأعمال ويصل الغرب بالشرق والجنوب بالشمال ،

ينهض بما لا تنهض به الألوف المؤلفة من السواعد والمعاول
ويقضى في ساعة ما لم يكن يقضى في الدهر المتطاوول — وهذه
القوة الحكيمة .

القوة قوتان — قوة الطاغية الغشوم ، والجبار الظلوم ،
يسوق الصفوف اللعجية تصخب بالحياة فإذا هي جثث يحوم
عليها الحمام ، ويطرق المدائن الفخمة فتندك آكاما على آكام
وركاما من فوقه ركام . ثم يقف فوق الأشلاء الممزقة والكواهل
المرهقة يعجب بما بلغت إليه قدرته على الخراب والإرهاب ،
ويختال بما أوتيته من سطوة التنكيل والعذاب — وهذه
قوة المهجبة .

وقوة الجواد الغيور يرى المساكين يدلحون بالعبء فيسره
أنه قادر على رفعه ، ويبصر الضعفاء يثنون من الظلم فيطربه
أنه زعيم بدفعه . وينظر العتل الجهول شائخاً بأنفه فيلذ له أن
يطأه بقدمه ، ويسمع دلال المحامد ينادى عليها في سوق
الفخار فيشتريها بلحمه ودمه ، ويقصده الناس فيرى أنهم
أقروا له بنهاية القدرة ساعة عرفوه بحاجتهم إليه ووفوه أجره
حين مدوا أيديهم مستعينين به . ثم يقف بين غرس أياديه

وثمار مساعيه فيستروح من شكر الناس له غبطة لا يستروح
مثلها ذلك العتل من خشيتهم إياه - وهذه قوة المدنية .

فيا من يعبد القوة أى القوتين أحق بالسيادة وأولى من

الخلق بالعبادة ؟؟

لقد مضى زمانٌ كانت فيه القوة كلها من الضرب الأول :
قوة خراب طائشة همجية . كان ذلك وركب العالم فى أول
مراحله ؛ فلما تقدم الركب اصطبغت القوة بصبغة أخرى أبقى
لها وللعالم من صبغتها الأولى واستقامت الفطر على هذه
الوجهة دهوراً وأجيالاً بأمر الطبيعة أم القوتين الطائشة
والسديدة ، لا بأمر عامل فضولى من خارجها ، لأن هذا
العامل الفضولى غير موجود . بيد أنه كما ينثلم المجرى أو يموقه
عائق فيتدفع الينبوع المروى سيلاً جارفاً ، وكما ينشعب الرجل
فينطلق البخار المحرك دخاناً عاصفاً ، كذلك تفسد الطبائع
فتنقاب قوة العظيم بلاء على قومه ووبالاً لبني جنسه ، فيقال لها
حينئذ قوة مدبرة من المدنية إلى الهمجية وتعد نكسة فى الخلق
وأمجوبة نصفها بشرى ونصفها حيوانى وحشى . وهذه هى

(٤)

قوة الغشمة الطامعين الذين لا يباليون شيئاً في جانب قضاء
أوطارهم وإظهار أنايتهم .

وإن شتمم برهاناً على أن العمل بالقوة فحسب هو خلل
في الطبع ورجوع إلى حال خلقها الإنسان ورائه ليتبدل
حالاً خيراً منها ، فانظروا أي الناس يظهر فيهم حب
التدمير ، وينلب عليهم العمل بالقوة منفردة عن الضمير .
أليسوا هم الطفل والهمجي والمجنون ؟؟ فانظروا في أي مرحلة
من مراحل الخلق هؤلاء الثلاثة — أما الطفل فهو في أول
عهده بالحياة الفطرية ، وأما الهمجي فهو في أول عهده بالحياة
الاجتماعية وأما المجنون فهو مدنى سلبت منه المدنية فارتد
إلى الهمجية أو الوحشية . إذ ليس الجنون إلا نوعاً من المسخ
والرجعة ، وآية ذلك دور المجانين ترون فيها من يمشى على أربع
تقليداً للدواب ، ومن سلبت منه قوة النطق فأصبح يعوى
عواء الذئب ، ويحاول الكلام كمن لم يعرف قط ما هو
النطق والخطاب . ومن يأكل لحم أخيه حياً كما ينهش السبع
فريسته ، ويتنمر لأخيه المشفق تنمر الضيغم أخطأ قنيصته ،
وترون أمارات الوحشية بادية في ملامحهم ونظراتهم وإشاراتهم

فتعلمون أى مسافة بين القوة والضمير ، وتهولكم هذه الهوة
التي يريد الشعب أن يسقط الخلق عامة فيها .

أرايتم أيها الصحاب لو بقيت كل قوة فى الأرض والسماء
فوضى على نشأتها الأولى ، أين كانت تكون الآن الكواكب
الساطعة والأنهار الجارية والصناعات المعجزة والأعنة المصلحون ؟

ولو أن الشعب ألقى خطبته هذه فى مستهل الخليفة وفجر
الحياة لذن كانت كل قوة حرباً على نفسها وعلى غيرها وكان
كل ضعيف قائماً وحده عزلاً أمام كل قوى لما عدا الواقع
ولا قال غير الحق . أما والقوة قد هجمت فى ألف ناحية قبل
أن تنتهى إلينا وحاولت كل محاولة تستطيعها قبل أن تحل بنا ،
وعرفت جهد ما تقدر عليه إذا انفردت بنفسها وقصارى ما تبلغ
إليه إذا أعلنت حكمها باسمها . فاليوم قد اضطرت أن تلقى
مقادتها لشيء أكبر منها وخرجت من تلك التجارب مهذبة
مستقيمة — ويا للعجب يا قوم؟؟ إن الذى هذب القوة وأبطل
حكمها الأعمى هو القوة لا سواها ..

أقول يا للعجب ولا عجب هناك لو أنعمتم النظر معى فى
الأمر وعرقتم أن القوة إنما سلمت للحق بعد أن أذعنت لقوة

أكبر منها فكانها تقضت شريعة القوة من جهة لتؤيدها من جهة أخرى، وما ظلمها الحق ولا غلب عليها الضعف ولكنه نظم صفوفها وحمى الكبير والصغير منها فحفظها من التخاذل والضياع .

معشر الأحياء :

كأني بأول قوى عرف نفسه فاعتز بسطوته وأعجبتته قدرته وأقبل يهز سيفه على رأس الضعيف ويقول له : إنك أضعف مني فاصدع بأمرى وألحق وجودك بي وسامني زمامك واعمل لي لا لنفسك وإلا أبدتك وهشمتك وجعلتك ترابا لقدمي .

فرعب المسكين مما سمع وتلفت الضعفاء بعضهم إلى بعض وقد علموا بعد حين أنهم مقصودون بهذا الوعيد فرداً فرداً فأجلبوا وتألّبوا وصاروا باجتماعهم أقوى من أقوى الأقوياء فكروا إلى ذلك المتمرد الجبار قائلين : إنك أضعف منا فاصدع بأمرنا وألحق وجودك بوجودنا وسامنا زمامك واعمل لنا لا لنفسك . فان أطعت أطعنا ، وانتفعت بقوتك وانتفعنا . وإن أبيت أبدناك وهشمتناك وجعلناك تراباً لأقدامنا ... فعلم القوى منذ ذلك الحين أن عليه واجباً كما أن له حقاً . وكذلك نجم الحق بجانب القوة .

لا تقولوا يا قوم : حسدوه . فليس من الحسد أن يرفع
القتيل يد القاتل عن عنقه .

ولا تقولوا : ظلموه فما ظلمك من ردك إلى الحكم الذى
ترده أنت إليه . ولا جار عليك من يعاملك بالقسطاس الذى
تعامله به .

ولا تقولوا : أخطأوا وضلوا فان ما تفعله النفوس بداهة
بوحى الطبائع وإلهام الحياة ذوداً عن كيائها وإبقاء جنسها
وإعلاء لشأنها لا يكون خطأً أو ضلالاً . ولو جاز ذلك لكان
الخطأ أصدق من الصواب والضلال خيراً من الهدى .
معشر الأحياء :

إن كان فى الدنيا شيء معصوم من الخطأ فهو فطرة النفوس
السليمة ، لأنها لا تريد إلا ما تريده الطبيعة لها ولا تهم إلا بما
تهم به القدرة العظيمة التى ركبها ودعتها إلى الوجود .

سموا حنق الجماهير على العظماء كيف شتمت فأنما هى أحرف
تغير ولا تتغير الحقائق والغايات . سموه حسداً أو أنانية أو
اضطهاداً أو انتقاماً أو غيره أو جهلاً . سموه كيف شتم ثم
انظروا إلى الباعث وانظروا إلى النتيجة ، فان كان الباعث

مستمدأ من الطبع والنتيجة حفظ النوع فغيروا لتكم فهو أيسر
وأجدى من تغيير قوانين الطبيعة وإرادة الخالق الحكيم .

انظروا إلى الأمم التي سادت فيها فلسفة الشعب ونسى
الجاهل أنفسهم فأقروا للأقوياء بالحق المطلق في التصرف بهم
ثم أخبروني هل أفلحت تكلم الأمم ؟؟

انظروا إلى الهند ومصر في العهد القديم ، ألم يكن السوقة
رجزاً لا يجوز مسه في نظر رؤس البراهمة ؟؟ ألم يكن الشعب
متعازهاً في نظر كهنة الفراعنة ؟؟ أما كان ساداتهم آلهة
وأبناء آلهة ؟؟ هل تأشب بين الطبقات حجاب أصفق وأصلب
مما تأشب بينها في هذين البلدين . فماذا أورثهم ذلك ؟ هل دام
لأولئك السادة بأسهم واستتب لهم مدى الدهر مجدهم ؟ كلا
بل أمن الأعياء على منازلهم فأفسدهم البطر والدعة فسفلوا .
وحجرت المسكنة على نفوس جاهلهم فلم ينبغ منهم خلف
لأولئك الأعياء قهافتوا . فكانوا جميعاً من الخاسرين .

والعالم وفقكم الله كالقدر الفائرة لا تزال تملو وتهبط ما دام
في مائها حرارة . ادخروا أعلاها وأريقوا ما دونه ينفذ الماء ولا
تدخروا شيئاً . ودعوا ماءها يهدأ أو تستقر طباقه تفتت الحرارة

وتخفت الحركة . والجاهير أصلحهم الله هم من كل نوع مادته
وذخيرته : منها تجدد حياته ومنها يكمل نقصه ، فمن قضى عليهم
بالهوان الدائم فقد قضى على النوع بأسره قضاء يحيط ضرره
بالأعين والأدين على السواء .

فها أنتم أولاء ترون أن التسليم للقوة يهزمها ويضعفها وأن
مقاومتها تشحذ سلاحها وتضاعفها . فإذا كانت رحمة القوى
للضعيف الإبقاء عليه فرحمة الضعيف للقوى منازعته ، وكذلك
تشمّل رحمة ربكم الخلق جميعاً .

ولقد يقول قائل منكم : إن المقاومة شأن الجاهير مع كل
عظمة يناوئون العظيم سواء كان جباراً طاغياً أو إماماً هادياً
أو مفكراً واعياً ، فإن لم يقدرُوا على مناوئته أضمرُوا له الحقد
وانطووا له على البغض وتربصوا به الدوائر كأن لهم ترة عنده
أو كأنه أخذ العظمة منهم وأساء إليهم بالتفوق عليهم .

أقول لهذا القائل أصبت ونعم ما يصنع الجاهير !
إنكم تكرهون مناوئة الجاهير للعظماء مع أنه لا تثبت
لعظيم عظمة إلا بالثبات على المناوئة . وتلومون الجاهير في
التريث عن تلبية النوايغ كأنهم يستطيعون أن يغيروا أنفسهم

كلما خطر لنا بغير منهم أن يدعواهم إلى ذلك . وهم في الحقيقة لا يترشون عن أمر يدعواهم إليه نافع أو مسيطر إلا لأحد سببين . فإما إنه لا يلائمهم أو لأن أسبابه لا تنهياً لهم . وعذرهم واضح في الحالتين - أليس الخير قبل أن تنهياً أسبابه وتمهد مواضعه شراً عاجلاً أو مطلباً مستحيلاً ؟ فلو أنصفتم الجماهير لرأيتهم في تباطؤهم عن إجابة نداء النوابع دليلاً على أن الوقت لم يحن بعد لإجابته . فكم من عظيم يرى ما لا يروقه من أحوال العالم فيخاله عيباً وما العيب إلا في تفكيره ، ويتعجل إصلاحه ثم يحسب إصرار الناس عليه جهلاً وما الجهل إلا في تعجله . ويظن أن ما يدعو إليه من بدائة المقول ، وما بدئية الفرد مهما عظم بأصدق من بدائة النوع برمته . فهو إذا أصاب أصاب من جانب واحد وهم إذا أصابوا أصابوا من كل جانب . وهم بعد لا يعرفون جانب الصواب منه إلا إذا ناوأوه ، فإن ثبت أخذوا به وإن لم يثبت فقد كان الضرر في الأخذ به لا في نبذه وإهماله - هذا هو محك المظنة ولا محك سواء - على أنني لا أقول للمعطاء كفوا عن دعوة الجماهير . بل أقول لهم ادعواهم إلى ما تظنونه صلاحاً لهم ، ثم أقول للجماهير قاوموهم

حتى يثبت لكم أنهم أهل لغير المقاومة منكم . فمن هذا وذاك
يصيب العظماء الإجلال من الجماهير ويصيب الجماهير النفع
من العظماء . ولولا ذلك لاشتبهت علينا الظواهر فخلطنا بين
الجليل والحقير والنافع والضار والباقي والزائل .

كذلك يا قوم يصطدم الشر بالشر فيتجلى الخير ، ويلتحم
الباطل بالباطل فيتضح الحق ، وتترن القوة بالقوة فيظهر
العدل ، والخير والحق والعدل قواعد لا تقوم بغير واجب .
والواجب أبو الضمير .

معشر الأحياء :

سمعت من الشعب أن مبادئ الخير أوهام ملفقة مخترعها
أوسع خيالاً من مخترع الغول والعنقاء والشيطان . فيا تلك
القريحة الهائلة !! لو ددت لو تستطيع الحياة أن تنجب عقلا
فذاً يقدر على اختراع العدل والحق والواجب والضمير فنفديه
بنصف الأحياء !! أو يقدر إنسان واحد على أن يستعرض
أمامه ميادين العصور المقبلة قبل أن يحاط عنها ستار النيب
فيرى كيف تصطرع فيها القوى وكيف يراوغ بعضها بعضاً ،
ويقتنى خططها المعوجة إلى أقصاها ثم يتنبأ عن الخطط القوية

التي ستضطر إلى اتخاذها فيصورها أصدق تصوير في مبادئ
خالدة . مبادئ فوق ما تصف الأهواء المختلفة وتزين المصالح
المتناقضة . مبادئ تصلح للنوع والفرد والقوى والضعيف
والسر والعلن والحاضر والمستقبل . أيقدر على كل هذا إنسان ؟
ما هذا بشراً إن هذا إلا إله قدير .

ولكن أنصار الشر قد اعتادوا يقوم أن يصفوا أنفسهم
بالدهاء والحزم ويصفوا أنصار الخير بالغرارة والتفريط .
وسبب هذا الاغترار بأنفسهم أنهم ينظرون وراء ألفاظ الخير
والفضيلة والذمة وما يشاكلها فيروعهم الكفاح والخديعة
والظلم والغيبة ويحسبون أنهم عرفوا ما لم يعرفه أحد من قبلهم
ويعجبون لدعاة الخير كيف تعمي عيونهم عن هذه الشرور
الملموسة والظلم الواضح ، فيقولون عنهم إنهم تباع خيالات
وعشاق أحلام . هذا ودعاة الخير يضحكون من قصر نظرهم
مع ادعائهم بعد النظر ، ويقولون لهم انظروا وراء الكفاح
والخديعة والظلم والغيبة ألا ترون هناك غرضاً واحداً عمياً
يشمل هذه الأغراض ويدمجها في أطوائه؟ نعم قد يظفر الأشرار
بالأخيار وقد يموت الأخيار قبل أن يظفروا بخصومهم لقصر

الحياة واتساع مجال النضال . إلا أن الخير يتغلب على الشر في نهاية الأمر ، وإنما يمهله ويعلى له املاء الواثق المظمن إلى سلطانه — الأختيار يموتون والخير لا يموت والأشرار قد ينصرون والشر لا ينتصر . فالنظرة الأولى أيها القوم للخير والثانية للشر . أما النظرة الثالثة فتردنا إلى خير لا كالخير الأول الذي يظهر على وجوه الأشياء ، ولكنه خير واسع شامل بعيد القرار .

يقول السيد المسيح : « مثل ملكوت السموات رجل زرع في أرضه حنطة ، وبينما الناس نيام دب إليها بعض عدوه ففس الزؤان في بذور الحنطة ، فلما اعمت النبات وأخرج شطأه ظهر الزؤان معه . وجاء العبيد مولاهم يقولون : أولست أيها السيد قد زرعت حباً صالحاً في أرضك ؟ فمن أين له الزؤان ؟ قال تلك دسيسة عدو . قالوا أنذهب فنجمعه ؟ قال لا ! لتلا تقتلعوا الحنطة معه وأنتم تجمعونه . ولكن تصبرون حتى يحين الحصاد فأمر الحصادين أن يجمعوا الزؤان فيطرحوا به في النار ثم يضموا الحنطة إلى البيدر »

فالأنبياء وهم أوسع دعاة الخير بصيرة وأعمقهم نفساً وأبعدهم
بديهية لا يزعمون وهم يدعون الناس إلى الخير ويأمرونهم بالبر
أنهم سيمحون الشر ويقتلمونه من جذوره . ولم يجهلوا أن
الخير بالشر مختلط اختلاطاً لا سبيل إلى فصله وفرزه ، ولكنهم
حببوا الناس في العمل الصالح لأن الناس لا يحتاجون إلى من
يحثهم على العمل القبيح ، وقالوا لهم : لا تنسوا غيركم لأنهم في
غنى عنكم يقول لهم : اذكروا أنفسكم ولينطلق كل منكم وراء
مصلحته ولو صغرت لا يبالي أدركها قاتلاً أو سارقاً أو خائناً
فذلك خير له من أن تفوته مجال من الأحوال . فهل يلامون
على ذلك أو يقال إنهم غفلوا عن الشر المأموس ؟ أم يلام
لأنهم ويقال إن هؤلاء الدعاة العلويين لمسوا الشر البعيد الذي
خفي عن أعين أولئك اللامعين ؟

إنما يعمل الأنبياء على تغليب بواعث الخير على بواعث الشر .
ولتعلموا أن الأنبياء لم يرسلوا إلى فلان وفلان بل هم مرسلون إلى
الناس أجمعين ، فلا جرم ينصحونهم بما فيه صلاحهم جميعاً . وما
اجتهد الأنبياء قط في إزالة الشر ولكنهم أذروا الشرير بعاقبته
وعاموه كيف يتجنبها ، وبشروا البار بجزائه وعاموه كيف

يسعى له . وعلموا أنهم سيموتون والشر والخير باقيان إلى يوم
يبعثون . وأحسبهم لو استطاعوا إزالة الشر لما أزالوه لأننا
لا نكاد نتصور الخير في الدنيا إن لم نتصور الشر بجانبه ،
ولعله لا فرق بين القضاء بالموت على الناس وبين تفرد الخير
بالسلطان عليهم من غير مغالبة أو مجاذبة أو ترقب نصر أو
خشية خذلان .

وبحسب الخير أنه منذ اهتدى إليه الناس تراجعت القوة
وعمردت النفوس على شريعتها فأصبح أقوى الأقوياء لا يجرؤ
على الاعتداء والجور باسم القوة العمياء : إلا أن يتمحل لها
المعاذير ويتذرع لها بسبب من الحق والعدل . فبطل القول
القديم : اعمل ما تستطيع ، وخلفه القول الجديد : اعمل ما يحق
لك عمله . وعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به .

ولست أعنى أن القوة العمياء قد خضعت للحق كل الخضوع
ودانت له في الصغائر والكبائر . فهذا ما لا يدعيه الحق وما
ينبغي للحق أن يدعى ما ليس له . ولكن عنيت أن الناس
لا يسامون اليوم بظامها وإن اضطروا إلى الخضوع لها ولا تقتنع
ضائرهم بشريعتها وإن لم تكن لهم حيلة في تبديلها . وبإضعية

العالم إن سلموا ، ويا سوء المنقلب إن اقتنعوا . إذ ليس وراء ذلك إلا أن يسترخى الأقوياء فيفقدوا العزيمة والمضاء ، وينزل الضعفاء عن الحياة بنزولهم عن الرجاء فتتعدم القوة الحافزة المجددة بين هؤلاء وهؤلاء ، وينهار سلم النشوء والارتقاء ، إلى حضيض الموت والفتناء .

فاذكروا يا قوم - أقوياءكم وضعفاءكم - إن التسليم للقوة الغاشمة يفسد القوى منكم والضعيف ، وإنه لا شيء يشرف التسليم له الأقوياء كما يشرف الضعفاء غير الحق . فاجعلوه لكم قبلة وإمامًا ، واتخذوه لكم صاحبًا ولزامًا .

واذكروا أن العالم لم يسلك طريق هذه الآداب وله ندحة عن سلوكها ، ولم يلجأ إليها وفي وسعه الاستغناء عنها ، لأن الطبيعة لا تملك الخيار بين طريقين وليس لها إلا طريق واحدة هي أهدى الطرق وأقربها بل هي الطريق التي لا طريق سواها . فإن قال لكم أنصار الشر : نحن ننظر إلى الواقع فقولوا لهم : هذا هو الواقع أمامكم فما لكم لا تنظرون .

ولقد خصصت الإنسان بأكثر كلامي ، فلا يعتب عليّ طاب ولا يتهمني منكم متهم ، فإنكم لا تنكرون أن الإنسان

سيد المخلوقات وأن الصراع بين القوة والحق لا يظهر في حياة
جنس من الأجناس ظهوره في الحياة الإنسانية، وأنا أقرب
الخلق إليه وأعرفهم به وأعلام رتبة بعده
.

فلم يمهله النمر حتى يتم كلامه ورفع يده ليهوى بها، عليه فتعلق
القرد بأطراف الشجر وترك النمر الهائج يهدر ويزمجر حتى وقف
الأسد، فها به النمر وأصغى إليه الجمع وهم يعجبون من قوة النمر
الشرس الأعم صعبهم من عجز القرود الفيلسوف عن دفعه .



وقف الأسد موقف الخطيب وألقى على الجمع الخطبة التالية :

خطاب الأسد

معشر الأحياء :

ربما انتظر بعضكم منى أن أتقدم إلى الترشيح بين حزب
وحزب من المتكلمين بين أيديكم - ألا فاعلموا أن هذا ليس
من شأنى وما نويت التعرض له حين وقفت للكلام . وليس
كلامى الذى سألقيه عليكم متوقفاً على رجحان واحد من
الحزبين على الآخر . فسواء صح قول الثعلب إن الخبرة بالنجح
لا بكيفيته ، أو صح قول القرد إن الحق ظافر بالباطل ولو بعد
انهزامه ، فأول الواجبات عندى على الحى أن يكون قوياً ،
وآخر الواجبات عندى على الحى أن يكون قوياً ، لأنه لا ظفر
لحق أو لباطل إلا بقوة .

وهما حالتان لا بد للحى من إحداها فى هذه الدنيا : القوة
والضعف - ولئن خيرت بينهما لأختارن أن أكون قوياً
ظالماً ولا ضعيفاً مظلوماً . بل إنى لأؤثر أن أكون قوياً مظلوماً

ولا ضعيفاً ظالماً ، لأن القوة رائعة حتى في انخزالها والضعف مخز حتى في انتصاره .

ولقد أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن الطبيعة نفسها تحب الظلم وتقلد الظالمين آلاته وأسلحته ، ولولا ذلك لما كانت حيوانات الفتك والافتراس وإن صغرت أشدّ وأجراً من آكلات العشب وإن كبرت ، وهاكم إخواننا الفيل والزرافة والجمال ، فإنها مع جسامه أبدانها وصلابة أركانها لا يطش عندها تفزع به أعداءها ولا أنفة لها تنخّيها عن إعطاء مقادتها لأصغر طفل من بني آدم . ولم ذلك ؟ أليس لأنها تتغذى بالنبات ولا تأكل من لحوم الحيوانات ؟ فكان الطبيعة تهب الحيوان البطش والشجاعة لغرض واحد هو الاعتداء بهما . فإن لم تكن به حاجة إلى السطو وإزهاق الأرواح سلخت عنه البطش وجردته من الشجاعة . فإن بقي له بعدها قوة فتلك قوة الصبر على البلاء لا قوة العزم على الاعتداء : قوة تحمل الضيم من القاهرين . ولكنها لا تقدر على قهر أحد . فيا معشر الأحياء : عليكم بالقوة لا تنيطوا لكم أملا بغيرها — عليكم بقوة الاتحاد أن تخطتكم القوة في الانفراد

(٥)

وعليكم بقوة الحيلة إن أعيتكم قوة الاتحاد . إنما كونوا في كل حال أقوياء تنجوا من عقاب الضعف المبرم . ولست أغلق على الضعفاء باب الأمل فيما بين الأقوياء الطامعين من فرجات الخلاف التي لا تنسد أبداً . ولكني أقول لهم أولاً وآخرأً : كونوا أقوياء ثم كونوا أقوياء يكن أملككم بأيديكم لا بأيدي الأعداء والأصدقاء .



فلما انتهى الأسد من كلامه تهيبت الحيوانات أن تعقب عليه وظل كل منها ينتظر أن يتقدم غيره للكلام بعد الأسد... إذ كانوا لا يريدون أن يوافقوه على رأيه وحكمه ، ولا يهتدون إلى وجوه الحيلة في مناقشته . وقد كانت المرأة تهم بالكلام بعد كل خطيب فيسبقها حيوان إلى الخطابة ، فلما رأت سكوت الحيوان في هذه المرة لم ترد أن تضيع الفرصة فبادرت إلى وسط الغاب وياغتت الجمع بهذا الاستهلال العجيب :

خطاب المرأة

سبع يخطب بين السباع - وهذا السبع هو هذه القاعة
بينكم الآن - ألم يدعى بعض الرجال سبعا جميلاً ؟ فأذنوا
لأحد السباع أن يبسط لكم شكواه من الرجال .

شغلكم البحث في النزاع بين القوة والضعف والغلاب بين
الحق والباطل عن البحث في علاقة هي ألصق بكم من كل
علاقة ، أعنى بها علاقة الزوج بزوجه . فرب قوى منكم
لا يعرض له ضعيف في غدواته وروحاته ، ورب ضعيف لا يئنى
بقوى طول حياته ، على حين لا يوجد بينكم ذكر لم يسكن
إلى أنثى أو أنثى لم تسكن إلى ذكر .

ولا غرو أن سهوتم عن هذه العلاقة فإنكم لا تجسسون
لأناثكم قدرًا ، ولا تهضموهن حقًا ، وأكثركم يكل إليهن
اختيار من يعجبهن منكم ، فنتخب الأنثى من تحب وتصدف

عمن تكره ، فهن معكم في حال لا توجب الشكوى ولا يستحب معها التبديل .

أما نحن بنات حواء فليت لنا عند رجالنا حظوة إناثكم من ذكوركم — نحن نساق سوقاً إلى أغراض ليست بأغراضنا ، وتغمض أعيننا عمداً إلا عما يروق أزواجنا . نحن معطلات إلا عندما يشتهينا الرجال ، مقصورات إلا عما يرضونه لنا من ضروب الكمال ، لنا رعوس ولكنهم يقولون إنها لم تجعل للتفكير بل لإرسال الشعور ، وحواس ولكنهم يزعمون أنها لأجلهم ركبت لا لإدراك الحقائق والأمور . ووجوه ينفونها في الحجاب لف الثياب في العياب ، وأحداق لم تخلق لتنظر بها بل لينظر إليها الأزواج والأصحاب . أخضعتنا الهمجية بالقسوة وأذلتنا المدنية بالحاجة ، ولكن الهمجية كانت أعدل معنا وألطف بنا من المدنية . فقد كانت توقعنا في أحضان أشد الرجال أسراً وأمتهم خلقاً وأحماهم أنفاً . ولم يكن أفضل لنا وأنوع الإنسان من هؤلاء الرجال في تلك الأجيال . أما المدنية فإنها تجرنا إلى فراش أوفر الرجال حطاماً وأسنانهم مقاماً ، من

كل أعجب أصف ، محدودب الظهر مأفون الفكر ، مردول
الخلقة والخليقة ، تقبلهم لنا عشراء ؛ ونخذهم لأبنائنا وبناتنا
آباء . لأنهم يجلبون لنا الطرف الثمينة ، ويكفلون لنا اللهو
والزينة : حاجات المدنية الخاوية ، وعلااتها الخاطئة الغاوية .
أما حاجات الطبيعة المكتوبة في كل ذرة من ذرات أجسامنا :
من رونق للصبا يرقص له قلب المرأة ، ونضرة للعافية تتشرف
إليها جوانحها ، وخصال نبيلة وصفات رائعة وروح خلافة
يسرها أن تنقلها إلى أبنائها وأن تعجب جيلا كله مصوغ في قالبها ،
فقد علمتنا المدنية أن تنزلها المنزلة الثانية بعد حاجاتها . فإذا نسينا
أنفسنا طرفة فتعلبت إرادة الطبيعة القهارة علينا فإنا من تلك
الحاجات نصيبنا ، كان أول من يسفها ويهجرنا آباؤنا وأهلونا
— أو نحن نحتال كي ننال منها خلسة فنفتنمها ما خفي سرنا ،
فإذا انكشف أمرنا للناس كان القضاء القائم بالعدل الكاذب
بين الناس أول من يضطهدنا ويسمنا بميسم خزي لا يحى .

ظامتنا الهمجية فجعلتنا إماء للرجل نعيش في رقه ما عاش
ونهلك معه متى هلك ، كأنها لا ترى لنا حياة . مستقلة عن حياته ،

وقواماً يجوز أن يستمر بعد مماته ، وقد يورثنا أبناءه كما يورثهم
الشاء والنعم ، أو يثدنا رضيعات كأن وجودنا ضرب من التهم .
وكان المعول في تلك الأجيال على العنف وبسطة الجسم فلم يخصصنا
هذا الظلم بل شاركنا في أكثره كل ضعيف مغلوب على أمره :
رجلا كان أو امرأة ، حراً كان أو أسيراً . وكنا لا نعقل
ما المساواة بل كنا نحسب أن العدل ما يصنع بنا . فلما تعاقبت
الأجيال ؛ وحالت الأحوال ، واشتدت الملاحاة بين المقهور
والقاهر ، وزالت الغشاوة عن الأبصار والبصائر ، عرف المغلوبون
أنهم هم الأقوياء ولكنهم مسحورون بالطمس المدثور ، وعرف
الغالبون أنهم هم الضعفاء ولكنهم جالسون مجالس النفوذ
والظهور - يهابهم الناس لمكانهم لا لجسارة جنانهم أو
صلابة أبدانهم أو طلاقة لسانهم أو رجاحة أذهانهم ؛ ووقف
كلاهما أمام صاحبه بادي المطاعن عارياً إلا عما فيه من فضل
واستحقاق ، فنزع الأولون عن تلك العطرسة ؛ ونقض
الآخرون غبار تلك المسكنة وأصبحوا منذ ذلك الحين سواء
بين يدي القانون : لأذلم مثل ما لأعزم من الصوت في اختيار

الحكام ومراقبة الأحكام . . . أفما كان ينبغي حينئذ أن تشمل هذه المساواة كل من كان مغبوناً بالأمس؟ نعم ولكن هذا ما لم يكن . فقد بقي النساء مستثنيات من هذه الرحمة العامة حتى في أرقى الأمم وأعرقها مدنية - وإن تعجبوا معشر الأحياء فاعجبوا لامرأة تملك الضياع الفيحاء والرباع القوراء والمتاجر الجوابة والمصانع الدوارة ، وتسن القوانين لإصلاح هذه الأموال وحياطتها فلا تخول في سنها صوتاً يخوله رجل لا يملك أصبعاً من ضيعة أو ابنة من دار أو علية في متجر أو مسماراً في مصنع ؛ وتحرز إحداهن أسمى شهادات العلوم والفنون ثم لا يسعها إلا أن تياس اليأس كله من منصب قد يتناول إليه رجل لم يمر في حياته بشارع فيه مدرسة - فهل حاله أعجب من هذه الحال فيما تعلمون؟ أنبلي بسيئات الهمجية ثم نحرم حسنات المدنية؟ فأين إذن يكون إنصافنا ومتى نخلص من أسرنا؟

اسألوا هؤلاء الرجال معشر الأحياء : أيستكبرون على أمهاتهم وأمهات أولادهم حقاً ناله خدامهم وأجراؤهم؟ إنهم لا يدعون أنهم أجمل منا استواء خلق وأكمل منا

هندام شكل . ولو أننا ادعينا ذلك لما كان منا بدعاً في الادعاء .
ومع هذا فنحن لانزعم أن كل امرأة أجهل من كل رجل ، فبايهم
يزعمون أن كل رجل أعقل وأحزم من كل امرأة ؟

على أننا لا نذكر أن المجال اتسع لنا مرة لمجارات الرجال
فيما يباهون به من أعمال العقل والحزم فقصرنا عن شأوهم
ولم نفر فريهم ، ففنا نساء الحرب اللواتي كن يقاتلن مع الرجال
كتفأ لكتف نضحاً عن أوطانهن ومحاماة عن بعواتهن ،
ومنا الشواعر والرياضيات والكواهن والملكات والبواحت
والطيبيات . فإن كان عدد هؤلاء لا يضاهي بعدد أمثالهن
من الرجال فليس هذا من خطأنا . وإنما هو خطأ الرجل الذي
أهمل فينا تلك المواهب وشغلنا بما هو أخط منها شأناً وأقل تفعلاً ،
موافقة لأهوائه ومرضاة لكبريائه .

ونحن بعد أصلح للحياة الاجتماعية لما ثبت من ندرة الجرائم
بيننا في جميع الأمم . وأصبح تركيباً ومزاجاً لما تقرر من قلة
الوفيات منا في الطفولة والهزم ، فنحن غيبنا إن رضينا بهذه
القسمة الضيزى ، ونحن خليقات بالغيب إن لم نطالب لأنفسنا

بخير منها . وها أنتم أولاء مجتمعون ههنا اتبعوا أسباب
التخاصم وتقربوا ومسائل التفاهم ، فهلا أهبتم بالرجل أن يمنع
العين من بيتك قبل أن تمنعه من الدنيا وأرفع الصغار عن أمك
وزوجك قبل أن ترفعه عن الناس ؟ إنكم لا شك فاعلون .



وجاست المرأة وهي توهم نفسها أن إناث الحيوان ستهب
على الفور للأخذ بتناصرها . فلم يحصل شيء من ذلك ونظرت
كل أنثى إلى صاحبها . وهي تبسّم ابتسامًا لم يعزب عن
السامعين مفزاه ثم بادر الرجل فقال :

خطاب الإنسان

معشر الأحياء :

كنا نحذر كل الحذر من يوم تصل المرأة فيه إلى نصيب ولو قليل من الحرية فتنظر إلى نفسها بعين المعجب المفتون كما كانت تنظر إلى وجهها بهذه العين آلفاً من السنين . لأننا نعلم أن المرأة شديدة الطيش والغرور لا تنال القليل حتى تطمع في الكثير، ولو أنها حرمت كل شيء لما طمعت في شيء ما . ثم هي لا تجد ما يساعد غرورها حتى تذهب فيه أبعد مذهب، ولن ترى مسألة مهما ضخمت أكبر من أن تخلطها بسفسافها وألاعيبها .

قامت المرأة بينكم اليوم تطالب بشيء ليس من ضروريات حياتها ولا هو مما يلزمها لأداء وظيفتها الطبيعية ، وإنما نراها تطالب بضرب جديد من الزينة سمعت باسمه فتعلقت به كما يتعلق الطفل بما يسمع عنه ولو كان مقره وراء النجوم .

فلا تصدقوا معشر الأحياء أن المرأة تطلب الحرية لأنها تفهم الحرية، ولكنها تطلبها كما تطلب قرطاً نفيساً أو ثوباً من الزى الأخير، ولو صبغنا لها الحرية باللون الذي ألفت به الاستعباد لما استطاعت أن تميز بين هذين النمطين من الثياب. ثياب النفس لا ثياب الجسد!

إنكم قد اجتمعتم هنا لتتشاوروا في أمر ليس أجل منه ولا أصعب. اجتمعتم للنظر في مسألة الحياة كلها ومعضلة الخلق أجمع. فما كان يدور لي في حساب أنى حين أتقدم للخطابة بينكم أجد نفسى أمام حماقة من حماقات المرأة المعهودة. ولكن ما العمل وهذه الحماقة لا تفارقها في موقف من المواقف! حدثها عن كواكب السماء تقل لك ما أحلاها! إنها تشبه اللعبة التي يلعب بها ابني أو ابنتي... وهي تدخل في كل أمر مطالبها التافهة التي يخيل إليها أن الوجود يدور على محورها ولا ينبى للناس أن يابهوا لشأن من شؤون الدنيا غيرها.

لقد طالما صبرنا أحقاباً مديدة على حماقات المرأة صبر المرء على شيء لا مهرب منه. ولا بد لنا أن نصبر بعد على ما يمتحننا به الله من هذه البدعة التي جاءتنا بها في هذه العصور الحديثة.

نصبر على كل حماقة إلا قولها إنها قد أصبحت فجأة - ولا ندرى كيف؟ - مثلنا في كل حق وواجب، لها ما لنا وعليها ما علينا، وإنها اليوم لن تحمل في الهيئة الاجتماعية محملاً أو وضع من محملاً أو تتجاوز عن حق نحن نتمتع به دونها - هذا لا نطبق الصبر عليه أو نطبق هي أن تكون رجلاً وامرأة في آن واحد. ونطبق نحن أن نكون لا بالرجال نفرد بحقوق خاصة للرجولة، ولا بالنساء نخلف المرأة في وظيفتها التي تريد أن تتخلى عنها.

أى مساواة للرجل تدعيها المرأة وهي إلى اليوم لا تجازبه في صناعة الطهي لو شاركها فيه؟ فما اشتغل رجل وامرأة بهذه الصناعة إلا برعها واستحق أضعاف أجرها، مع أنها قضت الدهور والأجيال لأعمل لها سوى طهي الطعام. واشتغل الرجل في هذه الدهور والأجيال بكل الأعمال سوى هذا العمل.

لا فرق يا قوم بين أن تقول المرأة إنها مثل الرجل في كل شيء أو تقول إنها أرجح منه وأكمل. فلو سلمنا لها أنها قادرة على أن تجمع صفات الأوثنة من لطف ووداعة وعطف وملاحة واستعداد للحمل والحضانة، إلى صفات الرجولة من

همة وعزم وحكمة وحزم وأخلاق متماسكة وطبائع نزاعة
ومواهب متنوعة ؛ فهل يقدر الرجل على أن يجمع مثلها بين
هاتين المزيين ؟ إن كان الجواب (لا) وهو حتم لا مرأى فيه .
فما بالها زادها الله تواضعاً تقنع بمساواة الرجل ولا تدعى التفوق
عليه ؟ وهى امرأة ورجل معاً وهو رجل فقط ؟ أليست هى حينئذ
أجدر بأن تتولى السيادة فى ميدان هذا العالم الكبير فوق سيادتها
فى عالم الرجال والمقاصير ؟

لو قام رجل فادعى أنه يستطيع أن يراحم المرأة فى الولادة
والرضاع لقام فى وجهه مكذب من تركيب الجسم ونظام أجهزته
وأعضائه . أما صفات الرجولة التى قدمناها فليس لها جهاز خاص
ظاهر للنظر أو لعلم التشريح ، فلذلك ظنت المرأة أن ادعاءها
الحزم وسعة العقل وقوة الطبع أيسر عليها من ادعاء الرجل
الاستعداد للحمل والرضاع — مع أن الأمرين بمنزلة واحدة من
الصعوبة والاستحالة ، وكل ما بينها من الاختلاف أن مزية
المرأة فى التركيب الجسمى ظاهرة للحس وأن مزية الرجل لم
تظهر بعد فى شكل خصوصية جسمانية . على أن هذا لا ينفى
أن آثار هذه الخصوصية تظهر فى أعمال الرجل ومراميه وإن لم

تظهر أعيانها في أعضائه وجوارحه . هذا إذا كابرنا مكابرة المرأة
وقلنا إن الرجل والمرأة فيما عدا الحمل سواء في كل صفة جسمية ،
ثم جاريناهما في القول بأن ما يبدو بينهما من الفروق حتى في
هندام الجسم وهيكله الظاهر إنما هو عبث لا يشير إلى حد
طبيعي بين عملهما في الحياة .

ولقد والله أنصف (انا كريون) المرأة حيث قال وهو أسبر
الناس لسرها وجهرها وأخبرهم بحولها وحيلتها : « إن الطبيعة
الحكيمة قد وهبت الثيران القرون ، والجياد الخوافر ، وجعلت
للأرانب سوقاً دقيقة سابقة تنجوبها ، وللأسود نيوباً حديدية
قاطعة تمزق بها فرائسها ، وقد علمت الأسماك كيف تنفتل في
الماء ، والأطيار كيف تنجدل في الهواء — والرجل أودعت قلبه
الشجاعة والبأس . أما المرأة فلم تجد عليها بشيء من كل ذلك .
فيم جادت عليها ؟ بالجمال . . . الجمال سلاح المرأة ومغفرها ، فمن
عرفت من النساء كيف تعمل هذه الشبكة السابغة فأياك إياك من
سلطانها ، فالسيف والنار بعض أعوانها . . . »

وليس هذا القول من قبيل المجاز لأن حقيقته محسوسة
بارزة للعيان . فالجمال في المرأة كالسيف في يد الرجل . وكثيراً

ما صارع الجمال السيف فتلمه وفل حده وأخذ بمقاده ولا طار في
الانهزام أمامه . لأن في هذا الانهزام انتصاراً للطبيعة والمهزوم
أمام سلاح الطبيعة غير مغلوب -- ما بال المرأة جهلت قدر هذا
السلاح في هذا الزمان ؟ وما بالها تراه لا شيء عندها في جنب
قوة الرجل ؟ هل يعجب المرأة الجميلة أن تخلع الجمال وهي امرأة
لتتقلد السيف ؟ إنها لا تستحق حينئذ حب الرجل وهيامه لأنها
عدو له يغلبه بسلاحه أو يزاحمه في مفاخره ، ولا تثير شغف
المرأة وإعجابها ، لأن المرأة لا تشغف بامرأة مثلها -- ألا فلتعلم
أن المرأة المترجلة تصول بسلاح غير الذي قلدها الطبيعة إياه ،
فهي لا تصل بهذا السلاح الصناعي إلى غرض من أغراض
طبيعتها ، وهي خاسرة بما لها من مزية على سائر النساء وليست
برابحة ، فما حظها في هذا الخسران ؟

أيتها المرأة : قد أصغر هذا الزمان سلاحك في نظرك
فهل تظنين أنه أنصف الرجل ؟؟ كلا ! ما نصيب الرجل من
زماننا هذا إلا كنصيبك ، وما ظلمك هذا الزمان بشيء إلا
بعد أن ظلم الرجل بأضعافه -- إن العيوب الاجتماعية التي
أصغرت سلاح الرجل الطبيعي في نظره وجعلت الدينار فوق

الأخلاق والمواهب والقوى ، هي العيوب التي جمعت المال
فوق جمالك وفتنتك ، فلا تحسدى الرجل على قسمته ولا
تزاحميه في شقوته ، بل عاونه على الرجوع إلى حالة ترغيبه فيها
لشجاعته وقدرته ومزاياه لا لقصوره وضياعه ، ويرغبك فيها
لجمالك وشمائك لا لميراثك ورتبة أريك .

أيتها المرأة : ارجعى إلى أعماق نفسك ، هل تجدين نعمة
من النعم تسرك كما يسرك الجمال ؟؟ هل تصبين في نفسك إلى
غرض أحب إليك من تملك قلب الرجل ؟ فباذا تملكينه ؟؟
أبالعلم والفلسفة والصناعة ؟ لا . بل بالطبيعة ... بالجمال سلاحك
وعدتك . وكل جمال لا يبلغك هذه الأمنية جمال عقيم
لا تنتفعين به ولا تعبطك عليه أترابك .

أيتها المرأة : كأنك قلت منذ هنيهة متباهية : أنا أجمل من
الرجل ... نعم أنت أجمل من الرجل في عين الرجل ، أما في عين
أختك فأقبح رجل أجمل منك وأحب إليها ، ولو كنت تمثال
الزهرة حسناً وحوراء الجنة شباباً . فلا تظنى أنك كنت
تخمين بهذه الحلية لو لم يردها الرجل لك . أليس جمالك الأنثوى
هو الشوب الذى أعجب الرجل أن يراه على جسدك قد

ألبسك إياه فلبسته؟ وهل أنت التي تحبين هذا الجمال لنفسك
أم هو الذي يحبه لنفسه؟ وهل كنت ترين مسحته على
وجهك ورواهه على أعضائك أم هو كان يراه فيختار منه
ما يحلو له فيبقى عليك ويزهد فيما لا يلائمه فيزول منك؟؟
أيتها المرأة: لا تقفي بثوب العرس تقولين للرجل إن ثوبي
أنغر من ثوبك، فإنه هو الذي أهداك إياه ولو لم يعجبه لما أعجبك!
معشر الأحياء:

قالت المرأة بين أيديكم إن الرجل يظلمها إذ لا يرى لها
من المحاسن إلا ما يروقه، فإن كانت المرأة تعد ذلك ظلاماً فهو
العدل جد العدل في حكم الطبيعة.

نعم نحن نشنأ المرأة المترجلة. ولكننا لا نشنأها اتباعاً
لنزوات الشهوة الطائشة أو التماساً للذة العاجلة. ولو فرضنا أننا
نشنأها لذلك أفلا يموزنا أن نعرف لم كانت خصال الأنوثة
في المرأة ألد للرجل وأجلب لاستمتاعه من الترجل وخشوته؟
وما دام الرجال كلهم مجمين على شناعة المرأة المترجلة ألا
يشير ذلك إلى أن في باطن هذا الهوى سرّاً فوق إرادة الرجل
والمرأة جميعاً؟؟

نحن نشأ المرأة المترجلة لأن الطبيعة علمتنا أن نشأها على الكره منا . الطبيعة تبذل لكل جنس ولكل نوع من المزايا ما يحتاج إليه وتحرمه ما هو في غنى عنه . الطبيعة تقسم هباتها بميزان دقيق لا يختل قيد شعرة . والطبيعة هي التي تحبيننا في المرأة الخفيرة العروب ، فسبيلنا أن نعلم من ذلك أن هذه المرأة الخفيرة أجمع لصفات الأنوثة من سواها . وأن خلوها من صلابة الرجل وخشونته دليل على أن صفات الأنوثة ملأتها وحافت فيها على صفات الرجولة . فهي لذلك أوفى بغرض الرجل من كل امرأة أخرى ، وهي أصلح لغرض الطبيعة الذي تريده منها ومنا . وأي غرض لها من النساء إلا أن تجعلهن أمهات صالحات لولادة أحسن النسل وإفراغ البنين في أحسن قالب ؟ ؟ فكان الرجل إذا بصر بامرأة مترجلة أدرك بالفريزة أن رجولتها تحيف على أنوثتها ، وأنها لا تليق أن تكون أمّاً لأولاده فنفر منها قلبه واجتواها طبعه . وقد يآلف عشرتها ولكن كما يآلف صديقه أو صاحبه لا حائلة أو حبيبة . لم تنفر المرأة من الرجل المتراهل ؟ ؟ أليس لأنها تعرف بفطرتها أن استجماعه لأوصاف الأنوثة ناقص من

أوصاف الرجولة التي تنشدتها فيه ؟؟ فما لها إذن تلوم
الرجل على كراهية المرأة المترجلة كما تكره هي الرجل المتأنث ؟ وما
هو الظلم الذي تشكوه منه ما دام كلاهما مسوقاً إلى غاية واحدة ؟
إنكم ربما وجدتم المرأة تخوض في بحار الثروة ، وتلعب
بصوبجان السلطة، وترفل في سرايل الجاه والسمعة . فإن فقدت
مع هذه النعم شيئاً من شمائل المرأة التي يحبها الرجال في النساء
كالملاحة والخفر والطراوة والظرف والولادة والحب ، حزنت
لفقدانه حزناً لا يعادله سرورها بتلك النعم الجليلة التي لا يتوق رجل
من الرجال إلى أعظم منها . لأن شمائل المرأة أرسخ في تكوينها
وأقر لعينها من هذه المطامع والجدود . وقد لا يسرها أن تكون
أحسن من أحسن رجل إن لم تكن أحسن من أحسن امرأة .
بل هي متى وثقت من أنها أحسن النساء لم تبال أن يرجح عليها
أحقر رجل تحت السماء . يروى أن الملكة اليصابات لما نقل
إليها أن ملكة ايقوسية وضعت ولداً وسياً ؛ قالت لمن حولها بنم
وكمد لم تحاول إخفاءها : « ها قد أصبحت ملكة أيقوسيا أمّا لولد
وسيم ، وأنا بعد ذلك الشيء المقفر العقيم » وما أدراكم ما اليصابات ؟؟
هي أذكي الملكات في العصور المتأخرة وأكيدهن وأرشدهن

وأعرفهن بالحكم . أنتج رأسها لما عقم بطنها، ونضجت فيها الملكة
لما تعطلت فيها المرأة ، وحي طمعها لما مات قلبها ، فعاشت
وماتت وهي تعزى نفسها بما قالته لمجلس النواب يوم اقترح
عليها الزواج : حسبي أن أعيش وأموت فيكتب على قبري :
« هنا مشوى اليصابات الملكة البتول » ولكنكم رأيتم كيف
كانت حسرتها على البنين وهي أم السلطنة والمال .

تذكرنا المرأة بالمساواة الحديثة ، وقد تعنى بها مساواة
الانقلاب الفرنسى — فخياً وكرامة : نحن لا ننسى مبادئ هذا
الانقلاب الجليل . ولكن المرأة نسيت أن تبين لنا هل كان
الانقلاب الفرنسى انقلاباً اجتماعياً أو انقلاباً طبيعياً ؟ وهل
كانت غايته تحويل موافف الطبقات أو نسخ خواص الأجناس
والمخلوقات ؟؟ فأما وقد علمت وعلمنا أنه انقلاب اجتماعى
فحسب ، فلتعلم أنها قد نالت من هذا الانقلاب ما ينبغى أن
تناله من المساواة حسب مركزها الاجتماعى . فالها اليوم موفور
وأمنها مضمون وحقها يصونه القانون كما يصون حقوق الرجل .
أما أن الانقلاب الفرنسى يبيحها الخروج عن جبتها وأن
لا تلد وأن لا ترضع أولادها وأن تهجر المنازل إلى الدواوين —

فهذا ما لا يفعله هذا الانقلاب وإنما هو يحتاج إلى انقلاب في
جسم الطبيعة يقرب عاليها سافلها والعايا بالله !!
معشر الأحياء :

هل لكم في فكاها أسوقها إليكم مما أحفظه من حكايات
القدماء يحكى أنه فيما سلف من الزمان وقف جماعة من
أهل الفضول على ساحل البحر اللجى . والسابحون في غمرته
تنقاذهم أمواجه . وتنفر تحت رءوسهم فجأجه . فيهوى فيها
الغريق تلو الغريق ، وهم يرون الطريق إلى الساحل ولا تنفتح
لهم الطريق . فأوماً أوائك الفضوليون بعض لبعض يقولون
تالله لنحن أمهر في السباحة من هؤلاء السابحين . إذ نحن
لا نغرق وهم يغرقون أليس هذا أيها الإخوان مثل المرأة
والرجل إذ تقول له إنها أسلح منه للحياة الاجتماعية لأنها أقل
منه جرائم وأسلم جانباً؟ ما للمرأة والجرائم وقد أعفاها الرجل
من مضانك الكدح وكفاها مؤنة النزول في زحام الحياة؟
شاطرها ماله وجاهه وقاسمها سعادته وصيته وهى فى كسر بيتها
لم تشمر معه ذيلاً ولم تجرد سيفاً . وهبوا كانت بحاجة إلى
الجرائم فن أين لها القلب الذى به تجترى والساعد الذى به

تصول؟؟ والحق أن المرأة ليست بأسلم جانباً من الرجل كما تقول لأنها أميل منه إلى الشجاء والشجار . فربما اتفق مائة رجل على الخطب المتفاهم الجسيم ولم تنفق امرأتان على الهنة الواهية الطفيفة . ولقد أغناها عن أن تكون مجرمة بنفسها أنها تجرم بيد غيرها ، لأن أكثر الجرائم إنما يقع بسببها ولأجلها . فهي تدرك ما تشاء من الجريمة دون أن تحتل تبعثها ، وقلمما تقع مصيبة كارثة إلا كان وراءها وطر لامرأة تقضيه بيد المجرم بعيدة عما يتعرض له من العقاب . وهي وإن كانت أقل من الرجل عيثاً وإجراماً فما هي بأقل منه خطايا وآثاماً . فلها من الجريمة أخس الجزئين وأضعف الجانبين ، لأنها تشارك الرجل في خبت النية ولا تشاركه في القلب الجريء واليد القوية . والرجل قد يفعل فعلته مغمض العين يباعث الغضب أو الألم فلا يهمة آلمت غيره أو لم تؤلمه . مثله في ذلك مثل السبع الذي يوثبه الجوع إلى قتل الفريسة وهو لا يسيء النية بها . أما المرأة فالإيلام همها الأول ، والنكابة عندها غرض مطلوب لزيادة عارضة . وذلك لؤم معروف في الضمفاء لا ينجلون منه لأنهم يجهلون مكانه من الفسولة والرداءة .

ولقد نرى أن المرأة ما برحت أبعد عن أوضاع المدنية
وفروضها من الرجل . مثال ذلك أن المرأة كما يعلم الخيرون
تؤمن على كبتها وقد لا تؤمن على بنتها . لأنها لا تبالي من
أى الرجال تلد بناتها ، ولكنها تبالي كل المبالاة أن تلد كبتها
من غير ولدها . وذلك لأن الطبيعة لا تندبها لغير إنتاج
الذرية سواء كان إنتاجها على حكم العرف أو على ضد حكمه .
ولا نتكلم عن رعاية الحدود والواجبات فقد عرف
الناس أن المرأة في ذلك كالطفل تشبث بما تروم ، وتولع بما
ترضى وتشتهى ولو كان لغيرها فيه حق مهضوم .



وتم فكاهة أخرى أيها الرفاق مما أحفظه من حكايات
القدماء فقد قيل إن النبات صاح بالحيوان عام كذا
وكذا قبل ميلاد آدم عليه السلام ، فقال بصوت سمعه
الثقلان : أيها الحيوان — أنا أصح منك مزاجاً وأثوم تركيباً
لأننى أطول أعماراً وأثبت فى الأرض قدماً . فنى ما يعمر
خمسة آلاف سنة وليس منك ما يناهز المائتين !!! فلم
ينشب أن صاح بهما الجماد من ورائهما قائلاً : بل أنا أصح
من كليكما لأننى أعمر أدهاراً لا تعرفون ما أوائلها وما أواخرها ،
إلى آخر ما قال أليست هذه أيها الرفاق حكاية
المرأة والرجل حين استدلت بطول العمر على صحة التركيب
واستقامة المزاج ؟؟ لا ننكر أن العلماء لاحظوا فى الزمن
الأخير أن النساء أطول أعماراً من الرجال ، وأن الوفيات بين
البنين أكثر من الوفيات بين البنات ، ولاحظوا أيضاً أن
الأوليين أنشط وأصعب مراساً من أخواتهم ، ولكنهم لم
يهتدوا إلى تعليل بات لهذه الحالة ، فمنهم من عللها بأن رهوس
المواليد الذكور أكبر من رهوس الإناث ، فلذلك كانت ولادتهم
أصعب والخطر عليهم أثناء الولادة أشد . . . ومنهم من عللها
بأن النساء لا يتعرضن للمتاعب ولا يتجشمن المعاطب ، فلا

يسرع الموت إليهن إسرعه إلى الرجال . وهما تعليلان وجيهان في هاتين الحالتين . أما في حالة الطفولة فلا نسمع بتعليل مقنع مقبول . ولا يعجبنا رأى القائلين بأن علة الموت الكثير في البنين قلة غذائهم وأنهم لا يصيبون من الغذاء ما يصيبه البنات . فإننا لانفهم لماذا يأخذ البنون كلهم دون كفايتهم من الأكل ويستوفى البنات كلهن كفايتهن منه . أليس في المسألة سبب آخر ؟ .

نعم . سبب ذلك فيما نرى مرتبط بتفاوت سن البلوغ بين الجنسين . فالجارية تراهق قبل الغلام والمرأة تستكمل نماءها قبل الرجل لأن وظائف بنيتها أقل من وظائف بنيته ، فهي تبلغ حدما الأوفى وهو لما يبلغه لتشعب جهات قوته واختلاف خصائص بدنه ؛ وكذلك يكفي غذاء الطفلة لوقاية جسمها من الآفات ، لأنه ينصرف إلى جهة واحدة وهي إشباع الجسم فتكون أسرع نمواً وأمنع على الأدواء بنية . أما الطفل فلا يكفي غذائه ، لأن بعضه ينصرف إلى إعداد قواه العقلية والنفسية التي يتفوق بها الرجل على المرأة ، فيكون نصيب جسمه من غذائه وإن كان أقل من نصيب جسم الطفلة من غذائها وإن قل . ويغلب أن ينصرف غذاء الطفل إلى توثيق الأعصاب والعضل ، وينصرف غذاء الطفلة إلى تربية الأنسجة

اللحمية وإصلاح الدم . ولا يخفى أن النشاط والارادة من أعمال الجهاز العصبي وأن الوقاية من الأمراض ومقاومة جراثيمها من أعمال الدم والأنسجة . فلا جرم كان الولد كما لاحظ أولئك العلماء أنشط وأصعب مراساً وكانت البنت أضعف وأغضرجسماً وكأنا أيها الرفاق قد وصلنا من هذا التعليل إلى نتيجتنا التي نكررها وندعمها : وهي أن الفرق بين الرجل والمرأة أصيل مستسر يبدأ منذ سن الطفولة الأولى . ولئن قلنا فيما مضى أن مزايا الرجل لم يظهر لها في التشريح خواص بدنية محسوسة ، فالآن يسوغ لنا أن نقول إن هذه إحدى خواصها الباطنية التي تبين لنا أن الرجل يتغذى بالحزم والشجاعة ورباطة الجأش في طعامه ؛ وأن المرأة لا تكتسب مزايا الرجولة أو تستطيع أن تهتدى بنيتها إلى وجوه النماء وترشد غذاءها إلى مجاريه في عروقها ، وأن القدرة التي خلقت الرحم في جوف المرأة هي القدرة التي خلقت العقل والبأس في رأس الرجل ونفسه : وبثت الهمة والاستعداد لكفاح الحياة في جسمه .

ولو لم نصل إلى هذه النتيجة من هذا الباب لوصلنا إليها من كل باب سواه . فما نظن عاقلاً يتصور أن الاختلاف بين الرجل والمرأة في التركيب لا يستلزم اختلافاً بينهما في الاستعداد

من شأنه أن يفرد كلاً منهما بعمل مستقل في الهيئة الاجتماعية
— هذا ما لا يجوز في العقول — والله در تنيسون حيث يقول :
خلق الرجل لنيران الوقائع والمرأة لنيران المواقف ، وخلق
الرجل للسيف والمرأة للابرة ، وخلق الرجل برأس مدبر والمرأة
بقلب عطوف ؛ وخلق الرجل للأمر والمرأة للطاعة . وما عدا
ذلك خبط وهراء »

فاذا نعمت علينا أيها الرفاق مقاصد الطبيعة وتشابهت علينا
الأمور فلم نعرف في حاضرنا أساثرون على صراط الطبيعة أم
نا كبون عنه . فليكن لنا من حالة الرجل والمرأة مقياس لا يفلط
ولا يكذب ولننذر الأمة التي لا تكون فيها المرأة مرأة والرجل
رجلا بأنها ناكبة عن صراط الطبيعة السوي وأنها حقيقة بأن
يحيق بها عقاب الذين ينكبون عن هذا الصراط . وهو
الاضمحلال والفناء ؟

والآن وقد فرغنا من حساب المرأة فلنرجع إلى ما كنتم فيه :
معشر الأحياء :

صدق الأسد حيث يقول إن الواجب الأول والأخير على
كل حي أن يكون قوياً — فهذه حقيقة لا تتغير سواء أكان

العدل هو الغالب على الدنيا أم الجور؛ وسواء أكانت العاقبة للمتقين أم للظالمين . ولو فرضنا كما يفرض الواهمون أن التقوى عمت هذه البرية حتى أصبحوا لا يستحقرون قويمهم ضعيفاً ولا يخشى ضعيفهم قوياً ، فأين من يؤمن غيره باختياره ، ممن لا يأمن على نفسه إلا بعفة في غيره .

وصدق القرد حيث يقول إن الأخلاق قوة فوق القوة —
إذ أي شيء يغلب يد القاهر المنتقم عن عدوه بعد أن تتمكن من عنقه إلا قوة عليا فوق قوته الدنيا ؟ أليس العفو والحلم والصبر وما شاكلها من الخصال ، هي القوة التي لا يحمد على الخضوع لها إلا القادرون ؟ هل يوصف بالعفو والحلم الضعيف ؟ كلا ! وإنما يوصف بهما القادر الذي تغلب نفسه نفسه . وأي شيء أجمل من أن يكون الإنسان مزيحاً من قوتين إحداهما ريفية على الأخرى ؟ فيملك قوته ولا يدعها تأسر فتسخره كالآلة الصماء ؟ ؟

وصدق الثعالب حيث يقول إن مصالحنا الخاصة أظهر لحواسنا وأقرب إلى أهوائنا من المصالح العامة . وبكنا نقول إنه حيثما وجد شيء يسمى أمة فلا بد هناك من شيء يسمى مصلحة الأمة . ولعمري كيف تقوم هذه المصلحة إن لم تقم

برعاية أبناء الأمة لها ؟؟ وهل يقال إن هذه المصلحة قائمة إن كان أبناء الأمة يعيشون بمصلحتها كلما عنت لهم فائدة قريبة ؟؟ إذن لا علامة على وجود الأمة قط ، وإنما هم آحاد مبعثرون وجسم مفكك لا تدب في عروقه روح مؤلفة ولا تشده بنية موصولة ولا تعمل أعضاؤه بإرادة واحدة . وكما أن الرأس إذا أصابته ضربة مؤلمة ارتفعت اليد إليه من تلقاء نفسها لتحمل عنه ألم الضربة ، كذلك يجب أن تكون الأمة التي تشبه في مجموعها مجموع أعضاء الجسم الشاعر الصحيح : يجب أن تنغرس في كل فرد من أفرادها غريزة تدعوه إلى تقديم نفسه لاحتمال الأذى متى تعرضت مقاتل الأمة لخطر من الأخطار ؛ ولهذا تكثر الأريحية والمفاداة بالمآرب الخاصة في الأمم الحية القوية ، وتكثر الخيانة والجشع وعبادة المنافع في أيام انحلال الدول وتدهورها .

إن الشاب ينظر إلى الفرد وحده ؛ فلو أننا نظرنا مثله بهذه العين الضيقة تعبطنا الرجل على فوزه ، ولو وفق إليه بالإسفاف والخداع والاحتيال . واكنا متى نظرنا بعين الأمة لم نجد قط أمة تفبط أخرى على مصحتها الضائعة بين مصالح أفرادها المتدبرة ، وحياتها التي يزدهقها بناؤها قبل أعدائها ،

فإن لم تقدر على أن تنظر بهذه العين فذلك آية على موت روح الأمة فينا أو على أن الأمة قد شارفت الهلاك . وفي هذه الحالة يجوز لنا أن نسخر من الحق ونهزأ بالضمير وتهكم على العدل ، ونقصر في الواجب ، فإن الميت لا يأسى على الجراح والغريق لا يحذر الببل .

وأزيد على ما تقدم أن مبادئ الحق خالدة متجددة ، وأن المصالح بائدة متقلبة . الحق مرتبط بحياة الإنسانية ، والمصلحة مرتبطة بحياة الفرد . فلو أننا أخذنا اليوم في استئصال الحق فحونا مدلولاته من الكتب وحذفنا أسماءها من اللغات وحرمنا على الناس تخيلها والتفوه بها لما لبثوا جيلاً أو أجيالاً حتى يشوبوا فيخرجوها من حيث أخرجوها أول مرة . لأن الإنسانية كلها لا تستغرق نفسها في حزب فذ أو عصر واحد ، ولا غنى لها عن ركن تعتصم به على تداول الأحزاب وتقلب العصور .

لا الإنسانية أيها الرفاق ولا القوة نفسها تستغنى عن الحق . فأى قوة أعظم وأرهب من القوى التي أعدتها أم أوروبا في هذه الأيام ليظفر بعضها ببعض ؟ ؟ ملأت الام البرور والبحار والأجواء ناراً وحديداً ، واستنفدت رجالها وأموالها ، وتركت مضاجعها وأعمالها والتفت إلى إعداد

القوة ، فجمعت في حرب واحدة ما لعله لم يجتمع في حروب العالم أجمع . ومع ذلك لم تكف أمة منها عن درء وصمة الظلم عنها ، والجهر بأنها مسوقة إلى الحرب على الكره منها وأنها لم تأت إلا حقاً ؛ ولم تعمل إلا أمراً واجباً ، فإن كان الحق وهماً كما يقول الثعلب وأشياعه فما حاجة الأمم إلى الاستعانة بالأوهام ؟ ؟ أليس هذا برهاناً على أن القوة لا تستغنى عن مؤازرة الحق ولو بلغت غايتها ؛ وأفرغت وسعها في استتمام وسائلها ؟ ؟

نعم معشر الأحياء . إن الإنسانية كلها تنصر الحق على المبطل ، والإنسانية كلها تميل إلى المظلوم وتكره المعتدى . ولسنا نكر أن الإعجاب بالقوة كثيراً ما يطغى في صدور الناس على حب الحق . ولكننا نقول إنهم إنما يجبرون بالقوة ريثما تأخذ حقها من العظمة ؛ ثم يكرهونها ليمجبوا بقوة أخرى أحق بالعظمة منها . هم ينصرون القوة الحققة على القوة السكاذبة ، ويكرهون أن تنخذل القوة ظلماً وهي خليقة بالانتصار ؛ فلاضير على الحق في الإعجاب بالقوة لأن الحق لا يكون في جانب قوة واحدة أبد الزمان . ولا تنسوا يا قوم أن الإنسان قد يعجب بالقوة وهو يحبها ، وقد يعجب بها وهو يبغضها . فهو يحبها إذا

اعتقد أن الحق معها ويغضها إذا اعتقد أنها على غير حق . فأى
ضير على الحق في ذلك ؟ أليست القوة حقيقة بالإعجاب ؟؟ إنه
يمجب بها !! أليس الجور حقيقةً بالبغض ؟؟ إنه يغضه !!
فلا تسرعوا إلى اتهام الفطرة الإنسانية في ميولها فإنها متى
اتفقت على ميل ما لم تحد فيه عن الصواب .

ولا أخفى عنكم أيها الأحياء أن الحق لفظة شائعة ليس
لها مضاد معين محدود . فلقد نعلم ما هو الحق في هذه
المسائل الصغيرة التي يتناوبها الناس في معاشهم آناً لهذا
وآناً لذلك . فإتينا عرفنا هذه الحقوق فيجب وجوباً لا
مشوية فيه أن تنزه عن اللى والبغض ، وتوضع بمنزل عن
المحاباة والهوادة . فإنه ليس أقتل للهيم ولا أفسد للأخلاق ولا
أكسد للمساعي والأعمال من شعور قوم بضياح الحق بينهم
بيد أننا قد نجهل وجوه الحق المطلق المشرف على الوجود
بأجمعه . لأن هذا الوجود لا يكاد يبين لنا حكمته فيما كان
فكيف بما سيكون ؟؟ وكأني من نهضة كبرى شغلت التواريخ
وصعدت بأناس إلى أنخم مقاوم السؤدد إذا كشفناها تكشفنا
عن عميم من المساوىء والأضرار ، وألفيناها منطوية على
كثير من الكذب والجهل والاقتسار ، فإذا نحن فسناها عا

تتحاكم إليه من مبادئ الحق اليومية لاحت لنا كأنها عمل
باطل من البدء إلى النهاية - وما خلت قط نهضة دينية أو
اجتماعية من هذه الأشياء ، فكيف تكون نهضات الإنسانية
كلها باطلة مزيفة ؟؟ وعلام المعول إذن في الاهتداء إلى هذا
الحق أيها الرفاق ؟؟

ثم إننا نجعل الغاية من تنازع الأمم ، ومتى جهلنا الغاية
فكيف نحكم على الواسطة ؟؟

تقول أيها الأحياء إن الوجود الذي أخفى عنا كنه أعماله
لم يحرمانا من بصيص ناصح بنوره حكيمته الخالدة . ونحن
نعلم علم اليقين أن العقيدة هي قائدة الأمم إلى بلوغ أغراضها .
فما من نهضة قط قامت على غير عقيدة ثابتة فأفلحت . وحسبنا
من هذا دليلاً على أن العقيدة هي الإبرة التي تتجه بنا إلى
قطب الوجود : هي الهادي إلى نياته ومقاصده ، فلا معول
في الاهتداء إلى الحق الأعلى الشامل الخالد إلا على العقيدة .
فهي رائده وعليها سمة من سماته الأبدية . ذنوبها مغفورة عند
أيديها ، وتقائصها منسية في جنب كمالاتها . على أنها لا تذب
إلا متى ترعزعت ولا تنقص إلا إذا تشككت . أما وهي قوية
مكينة فلن تراها إلا وفي جوفها نار تصهر أو شاب الطبايع
(٧)

فتطهرها كما تصهر نار البركان أو شاب الأرض فتفجرها
سيلا أحمر يتأجج ناراً، ويتدفق تياراً، ويطير في الفضاء
إعصاراً . فلا تعرف أماء هو أم لهب ، وحديد هو أم ذهب ؛
لكنه على أى صورة قوة جارفة صادعة ، وحركة من صميم
الأرض نائرة وإلى عنان السماء نازعة . كذلك العقائد تصهر
الطبائع المختلفة وتحيلها إلى طبيعة مدمجة حارة ، لا فرق بين
عقيدة في مذهب أو رجل أو وطن أو دين أو أمل كبير .

ولا عجب — والعقيدة علامة نية الوجود — أن لا يكون
أثرها مقصوراً على قوم دون قوم . فعمل الشعب الذى تظهر فيه
لا يكون أوفر الشعوب قسطاً من نفعها . وهذه ألمانيا عدوة
فرنسا اللدود قد انتفعت بالثورة الفرنسية أكثر مما انتفع بها
الفرنسيون ، فضمت شمالها وألفت وحدتها . ولولا الثورة
الفرنسية لما أحست ألمانيا بحاجة إلى الانضمام ، ولما صارت شيئاً
مذكوراً في قليل من الأعوام . فالعقائد تتجمع حيناً بعد حين
إلى أن تهب هبوب الصرصر العاتية فتحرك الحياة الإنسانية
الراكدة وتستفز العناصر العاملة في الشعوب والأقوام من كل
فج عميق . وهى عناصر طبيعية كالرياح التى لا تقف فى مهاها
والسحاب الذى لا يهطل فى مناشئه والأنهار التى لا تجمد فى

منايها . ولكنها تجرى حيث يجريها القدر المجهول ، من وراء حجاب المسدول . وكأنه ليس على العقائد إلا أن تتحرك فتأتي من العجائب بما لم يتخالج أنصارها المتشيعين لها ولم يدُر في حساب أعدائها الخائقين عليها . فالأقلاب الفرنسي لم ينشر في ألمانيا الحرية والإخاء والمساواة ، وهي المبادئ التي كان زعماء الأقلاب يرمون إليها ويعنون بنشرها ، ولكنه نفعها من هذه الطريق التي ما نظر إليها الفرنسيون ولا حلم بها الألمان . وكان له في كل أمة يد خلاف يده في سواها .

إن الفكر يقودنا إلى حيث نعرف . أما العقيدة فتقودنا إلى حيث تعرف الطبيعة وهي أهدي منا وأبصر بنايتنا — كفلتنا ردحا من الدهر أيام كنا في غيابات الجهالة لا مرشد لنا إلا ما تأمرنا به أو تنهانا عنه ، ولا تزال تكلانا وترطانا كلما أضلنا الفكر بنوره الضعيف . وما أضل الذين يرون أن الفكر وحده يحكم الدنيا لا أيها المفكرون !!! الفكر لا يحكم الدنيا ولا الإنسان . نحن بالفكر قد تفهم الحياة ولكننا إنما نحيا بالخوارج والعقائد ، وإنما يحيا الذين خلقوا للحياة . أما الذين خالقوا للفكر فقد يكون حظهم من فهم الحياة كبيرا ولكن حظهم من الحياة غير كبير . فما أخسر أمة عندها الفكر وليس عندها العقيدة ! . . .

ما أظن فكرها هذا إلا مودياً بالرمق الباقي فيها من الحياة .
وأى شئٌ بعيشكم أظهر ليد العقيدة في العالم ، وأبين عن
كنها المعجز العجيب ، وأنها لا وازع يساويها ولا باعث يفعل
فعلها ؛ من هذا الإجلال المقدس الذي يخص به الناس رسل
الأديان وأصحاب الملل دون عامة العظماء والمشاهير ؟؟ كم خلا في
أرضنا هذه من فلاسفة مصلحين وحكماء مرشدين وعلماء محققين
وشعراء مفلقين وسواس محنكين وقواد مديرين وصناع
مخترعين ؟؟ كم خلا من أمثال هؤلاء في الأرض ثم نسيهم الناس
وأذالوهم وبقى ذكر هؤلاء النفر المعدودين أسير من كل ذكر يرام ؛
ومقامهم عالياً فوق كل مقام ، متفرداً فوق رهوس الألوفاً من
الأقوام ، الذين ما زالت تقذف بهم الأرحام ، وتشلقفهم الرجام ؛
من قديم الأزل إلى هذه الأيام ؟؟ إن خلد أولئك أحقاباً خلد
هؤلاء أدهاراً وآباداً ، وإن ذكر أولئك بين الدراساتين
والقراء ذكر هؤلاء في الجهر والخفاء ، وظهروا في كل أرض
وسماء ، كأنهم كواكب السماء ، لا ذرية آدم وحواء . وإن
قرنت أسماء أولئك بالثناء والتكريم . قرنت أسماء هؤلاء بخلق
الكون القديم . كأنهم جزء من ذلك الوجود السرمدى . وكأنهم
شهدوا معه خلق العالمين العلوي والسفلي ، — فهل تقول إن

الفطرة الإنسانية بنيت على الزيف . وأشرجت على الزلل أو
تقول خدعة صادفت غفلة كما يقول الثائرة المتفهبون
يسر الله لهم الأمور ما أيسر عليهم وأريح بال الباحثين معهم !!
أما نحن فنقول إن هؤلاء النقر الأعلام يتبوأون بين البشر هذا
المحل الأوحى الذى لا يدانيه الملك والفتح والحكمة لأنهم جاءوا
إلى البشر بما لم يحثهم بمثله الفاتحون والحكاماء ، ولأن البشر أخرج
إلى العقيدة منهم إلى ثمار الأستاذين والرؤساء ، وأنهم إن كان لهم
تاريخ فى صحيفة الحياة - فذلك تاريخ العقائد والأنبياء لا تاريخ
الأقوال والآراء ، أو الوقائع والأنباء ، أو البخار والكهرباء .
فالمرء يصغر كل عظمة فى جانب عظمة النبوة لأنه مدين
للأنبياء يقينه وإيمانه ، وما هو مدين لغيرهم من المشاهير إلا
بمروضه وأمواله . ولن يستوى الإيمان والعروض والأموال .
لأن المرء إذا أخلص فى الإيمان يفدى العقيدة بالمال ولن يفدى
المال بالعقيدة ، وهو يصنع لحماية عقيدته ما ليس يصنع بعضه
لحماية نفسه وولده - انظروا إلى العرب فإنهم فتحوا مصر مرتين :
مرة على يد الرعاة ومرة على يد المسلمين . لبشوا فى المرة الأولى
ما لبشوا ثم أخرجوا منها فلم يتركوا بعدهم أثراً . واستولوا عليها
فى المرة الثانية فأصبح دينهم دينها ولغتهم لغتها ونفخهم نفخها

وأصبح تاريخهم لا ينفصل عن تاريخها . لأنهم كانوا في المرة الأولى رواد كسب وكانوا في المرة الثانية خدام عقيدة نجابوا لما عملوا المكاسبهم وأفلحوا لما عملوا لعقائدهم . وكذلك فتح العرب الدنيا يوم كانوا يذبون عن الدين وعجزوا عن منع ذمارهم يوم صاروا يذبون عن التراث والبنين .

إن موسى وعيسى ومحمداً وإخوانهم من الأنبياء والمرسلين لم يكونوا لاعبين ولا خادعين ولا واهمين . بل هم عاملون لا يشبههم غيرهم من العاملين . وليست نهضاتهم الخطيرة مصادفات بتراء منعزلة عن حوادث هذا الكون الواسع الكبير ، فنقول إنها فلتة لا تنطبق على أحكامه ولا تدل على غايته . ولو قيل إنهم طلاب مجد وعشاق خلود ، قلنا : ولم يطلبون المجد ويعشقون الخلود ؟ وما الذي جعل تعشقهم للمجد والخلود ينتهي هذه النهاية في نفع الخلق واستجاشة أفئدتهم وعقولهم وأنفسهم ؟ — أمضطرونهم في ذلك أم مختارون ، وقائدونهم في فعلهم أم منقادون ؟ لا بل مضطرون لا يد لهم فيما يأخذون وفيما يتركون ، ولا اختيار لهم في خلق أنفسهم بحيث ينادون الناس فيطيعون ، وما قصدوا ما كان من آثارهم وما يكون ، ولكنها تمت وهم لا يعلمون — وكم قصد العظماء نفماً للعالم فلم يتم ما قصدوه

وتم النفع من جهات عدة لم تخطر لهم على بال ولم تتقع منهم في ظن أو تقدير . بل تم من الأمور بسببهم ما لو فطنوا إليه قبل وقوعه وعلموا أن أعمالهم تؤدي إليه لما عملوه ، ولعملوا ما في وسعهم لإحباطه ومنعه - ريشيليو أراد أن يؤيد الملكية في فرنسا فأسقط الملكية - ألا يدل ذلك وأمثاله على أننا آلات مسيرة لقدرة لانهاية عميقة الحب والخير ؟؟ ألا يجب علينا أن نؤمن بتلك القدرة وتنبئ اليها ما دامت تحيط بنا وبأغراضنا ، وما دامت تفعل من أجلنا وبأيدينا ما لا يدور بأخلاقنا ؟؟

معشر الأحياء :

إن كان الأسد يقول لكم عليكم بالقوة فأنا أقول لكم عليكم بالعقيدة لأنها تقوى الضعيف وتضاعف قوة القوى . وغاية الفرق بين ضعيف وقوى فيها أن الضعيف تحمله عقيدته ، فلا ترى فيه إلا عقيدة سائرة ، وأن القوى يحمل عقيدته فترى فيه العقيدة والمعتقد . وهي في الحالتين تخرق العادات ، وتنجز الآيات المدهشات .

في القوة ترون عقيدة الفاروق وهو يحتد في عدله ويعدل في حديثه . ويرهب النيل وما بالنيل من رهب أو رغب ،

ويعجب لموت النبي وما في الموت من عجب . هل أطمعته العقيدة حتى بطاعة الجماد والتمرد على الموت ؟؟ يقيم الحد على ولده وله مندوحة عن جزائه ، وبعلم الأذان بين جنود الكفر وأبنائه . ويهم بالخطوب الجسام فما هي إلا كرجع الصوت ، ويهور الممالك بشراذم لا يملكون من أنفسهم ما ينفسونه على الموت - هذه هي العقيدة في القوة .

وفي الضعف ترون العقيدة في جان دارك العذراء النحيلة وهي ترجى عسكرياً وتتوج أميراً . وترونها تحت أسوار أورلنز والدمع يظفر من عينها ، والدم ينفر من عاتقها . وهي تتراعى على الأسوار كأن الحمام لا يجرؤ عليها أو يحقق الله وعده بإنقاذ فرنسا على يديها - هذه هي العقيدة في الضعف .

واعلموا أنه لا يأس من أمة ما بقي فيها استعداد للعقيدة وأنه لا أمل في أمة قد نضب فيها هذا المعين السماوي مهما أمجبتكم ظواهرها، وغرتكم بوادرها، فانه لا عمل بغير أمل ولا أمل بغير إيمان وإذا كان القرد يقول لكم عليكم بالحق فأنا أقول لكم عليكم بالاعتقاد بالحق . لأن أنفع ما في الحق النيرة عليه والسعي إليه . ولعمري لقد أصاب القرد حين قال لكم إن حياة البرية في بقاء الحق والباطل متغالبين ، لا في اجتثاث الباطل وإزهاقه .

والأفهل حالة أشنع - لو صححت - من تلك الحال التي يتمناها
بعض الحالمين؟؟؟ يتمنون أن لا تطلع الشمس إلا على ذي حق
لا ينازع فيه، والأعلى راض لا يجد ما يشكو منه، فإن تم هذا
- ولن يتم - فأين يكون تنافس الأقوياء وإقدامهم، وأين
تكون خشية الضعفاء وتأزرهم، بل أين يكون الحق نفسه؟؟
هل علم أحد منكم لنفسه حقاً موقوفاً عليه متصلاً بكيانه يقول
هذا حق كما يقول هذا رأسى وهذه يدي؟؟؟ إنما الحق ما يخلص
من هذه المنازعات والأطوار ويحصل من اختلاف نظر
الناس إليه وتعدد مناحيه . فلاحق إلا بالنزاع على الحق .
وزوال النزاع موت ، وزوال الحق باطل ومحال . والحق يكون
معكم مرة وعليكم مرة ، فإذا أردتم أن تعرفوا في أى جانب هو
فانظروا إلى جانب العقيدة قسم الحق الأكبر المنشود .
عندئذ قال الذئب: وما مرادك بهذا الكلام أيها الإنسان؟؟
أتريد أن يصر كل منا على عادته ويؤمن بما هو في صدده؟؟
إن كان هذا مرادك فهذه يدي فأني أول المشايخين لك .
قال الإنسان: لا بل أردت أن تؤمنوا بي وتركنوا إلي .
لأننى - ولا أزدهى عليكم - قد جمعت من دواعي الإيمان
ما تفرق فيكم . وقد زدت عليكم بأشياء لم يتحل بها أحد منكم ،

ومتى آمنتم بي كنت معكم على حد قول المتنبي لأسد قنسرين
فهل لك في حلقى على ما أريده فإني بأسباب المعيشة أعلم
إذن لأتاك الرزق من كل وجهة وأثريت مما تغنين وأغنم
قال الذئب : أى نعم ! كما أترى الكلاب من فضلات
موائدك ، وطعمت من عظام البهائم الآوية إليك . فجعلت
الكلب - وهو واحد منا - يعبدك ويحرس نومتك ويرعى
ماشيتك ويعادى بنى جنسه في خدمتك !

قال الحمار : مهلاً أيها الذئب فاناراضون بأن تؤمن بالإنسان،
ولكن على شرط أن تحرق الأكفُ والمناخيس في مجلسنا هذا.
قال الحصان : والسروج والمركبات والطواحين !

فقال البقر والغنم والماعز بصوت واحد : وأن نكتب
كتاباً يمنع شرب الألبان وتحريم ذبح الأنعام والماشية .
فاشتد اللفظ بين الأوز والدجاج وصاحت من كل جانب :
وذبح الأطيوار الداجنة أيضاً .

وزبح النمر قاتلاً : وقبل ذلك أريدوا الراميات والرصاص
والمفرقات فلا تبقى منها باقية .

ومضى كل منهم يمرض اقتراحاً ، أو يزيد شرطاً ، حتى نفذ
صبر الإنسان فقال غاضباً : وهل يقال أيها البهائم إنكم تؤمنون بي

وأتم تقيدونى بهذه الشروط ، وتجعلونى آلة بين أيديكم ؟؟
أم حسبتم أنى لا أنال منكم قسراً ما أعرضه الآن عليكم عرضاً .
وكأنما كانت هذه الكلمة جذوة نار ألقاها الإنسان
فى تلك الغاب ، فقد أحدثت فيها ما يحدثه الحريق من الهياج
والاضطراب ، فأخذتهم سورة الوحشية ؛ وهجم بعضهم على
الإنسان فزادهم بعضهم عنه . وهو واقف بينهم نادماً على
تلك الكلمة ؛ ولو أمعن فى قلبه لوجد فيه بعض السرور من
تلك النكسة التى كادت تفقدهم المنطق العارية الذى سمحت
لهم به الحياة فضارعوه فترة من الزمان .

ويناهاهم كذلك إذ ارتفعت من نواحي الأفق قطعة
سحاب كطلائع الخيل ما زالت تكبر وتنتشر حتى سدت
الآفاق وأطبقت الأرض والسماء ، فارتدَّ الجوّ وقصفت الرعود
وانقضت الصواعق وانهمرت الأمطار . وظل جمع الغاب فى
عمياء من أمرهم لا يعرفون قبيلاً من دبير ، وقد شغلهم هول
ما هم فيه عن التفكير فى المصير . ثم سمعوا منادياً يناديهم
بصوت كأن هزيم الرعود معه أخفت من ديب الشمال ؛
وأهدأ من نسيم الشمال . قائلًا :

اخشعوا للطبيعة يا أبناء الحياة الغرور! ! أنصتوا للدوام
يا أسراء الفناء والدثور ؟

نخشعوا واجفة قلوبهم ، راجفة من الهلع فرأئصنهم . ثم
التفتوا فانتشعت هذه الغمة عن شخص هائل رأسه فوق
النجوم ؛ وقدماه تحت الثرى . مهيب ولكنه مودود ، وعجيب
ولكنه مهود ، وهو من ثم قطوب كالجبل الأغبر ، ومن ثم
بشوش كالربيع الأخضر . فألمحوا أنه روح الطبيعة . وكان في
تلك اللحظة يهدر بصوت لم تستقل بسماعه الأذان دون سائر
جوارح الأبدان .



خطاب الطبيعة

أيها الأحياء :

لا أطلب إليكم أن تصيخوا إلىَّ فإن في كل دقيقة من دقائق أجسامكم أذناً تتسمعي في كل حين. غير أنها قد تغفل عني أحياناً فيبلغها صوتي منحرفاً عن الحقيقة ، مزيفاً بضلال الصناعة . فالآن أنفي عن آذانكم كلها هذا الوسواس لتسمعوني حق السماع ، وتنبذوا ما سمعتم من سوى كل النبذ .

أنت أيتها الحياة ! تمخضت عنك وما تركتك لنفسك لمحمة عين . فما زلت عمياء حتى في طلب الخلاص من الموت . ولأنت أقرب ما تكونين إليه حين تفكرين في الخلاص منه . ولقد ظننت أنك أعرف مني بما يسعدك وما يشقيك . فمكفت على الصخب ؛ ودأبت في الهرب ، وعكست الأمر فأشقيت نفسك من حيث تلتسين السعادة ، وجاءتك السعادة من حيث تخافين الشقاوة ، ولا أذكرك إلا بأنك وليدتي وأنتى أنا أمك . أعلم من شأنك ما لا تعلمين ، وقد كنت ولم تكوني وأكون حيث لا تكونين . وأنا أحرص عليك منك ، وإن

زعمت أنك أخبر منى بنفسك ، فما من صلبك ولدت بل أنا
الوالدة ، وما من جسدك تأكلين ولكنى أنا المأكولة الآكلة .
أنا التي أصوغ من الصميد الخائق والماء الجارى ، ومن الهواء
الخائق والضياء السارى ، عجيبة منه تنشأين ، ثم منه تستمدين ،
تتناولينه جهادًا جاسيًا ثم تجرينه فى باطنك إحساساً مدركاً
واعياً ، ولو سألت كل ذرة فىك أن ترجع إلى موضعها منى لما بقى
فىك إلا مكانك ، ولضاع منك إحساسك وعامك وبياناتك ،
فمن جسدك كيانك ، ومن جسدك قوامك ، وإلى جسدك
مرجعك ومآبك . فكيف إذن تختارين لنفسك ما لست
أختاره لك . ومن لك بمحاربة الموت وهو قضاء حتم عليك ؟
اعلمى يا حياة أنك لا تخافين الموت إلا لأنك تمشين فى
أنفاقه معصوبة العينين ، ولو كان لك اطمئنان الوليدة إلى أمها
لتأكدت أنك ناجية ما دمت فى يدي . ألما تعلمى أننى أمر
بك من أنفاق الموت إلى ضياء أسطع من الضياء الذى كنت
فيه ؟ فانظرى أين أمسك من يومك ، وأين الجسم السوى
من المضغة القذرة ؟

تشفقين يا حياة أن يلم الموت بمضغة ترمزين فيها لحظة من

الوقت، ولو أنها نقطة من تلك النقاط الزلالية التي لا يميزها الناظر من نقاط الماء - وجهلت أننا لو جاريناك على هذا الإشفاق لكنت تلك النقاط غلبا ما تسنمته من درجات التكوين، وطمسرت الوجود برمته وأنت تتمسكين بالوجود. فكانت كواكب السموات وكنوز الأرضين وأسرار الخليقة وودائع المعرفة كأنها لم تخلق، وكأنه لم ينشق عنها العدم المطلق، وهي التي تجلسين اليوم في سويدائها. وعربك الموت في سراديبه إلى دارةٍ دارةٍ من سبحات أضوائها.

أنظري آلاء الموت عليك .

قالت الطبيعة ذلك ثم نادى . . . يا موت ! فانطلق من يسارها شبح بغيض شملتنا رؤيته بقشعريرة باردة، وامتلأت الحياة ذعراً وهي تصارع ذلك الشبح ويصارعها، وما استطال هذا الصراع حتى غشيتنا الغاشية مدة لا ندري ما مقدارها، ثم صاحت بنا الطبيعة فانتبهنا . فإذا نحن خلق آخر وإذا الحياة أمامنا أبهى مما كانت وأعدل قواماً وأحب منظراً وأذكى عرفاً وأنبل طلعة . ثم قالت الطبيعة تخاطبنا :

أما وقد شاهدتم أيها الملا كيف أن الموت ينقلكم من

طور إلى يُطور أكمل ، ومن هيئة إلى هيئة أجل ، فاعلموا
كلكم الله - أن الكمال فائتكم في الحياة وليس البقاء ، فلا
تخافوا الموت بل خافوا النقص فهو أعدى لكم من الموت ...
ولا تسمعوا صوت الحياة بل اسمعوا صوت الطبيعة فهي أبرّ
بكم من الحياة .

فما كادت تلفظ الكلمة الأخيرة حتى وثب الأسد على
الثور وقبض النمر على الأيل وعدا الثعلب وراء الأرنب
ووجأ الذئب عنق الشاة واتهم الهر الفأر وجذب الإنسان
سلاحه يضرب ذات اليمين وذات الشمال . . . والقدر يضحك
والحياة تصرخ . وكلهم ذاهبون على رؤوسهم يصيحون :
اسمعوا صوت الطبيعة ! اسمعوا صوت الطبيعة !!





مشرم طبعه و نشره
مطبعة المعارف و مكتبة توابصر